التوبة والاستغفار

تصنيف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

المتوفى (٧٢٨هـ)

تحقيق

محمد عمر الحاجي　　عبد الله بدران

الناشر

دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ١٩٩٤م

دار الكتاب العربي

الطابق الثامن - بناية بنك بيبلوس - فردان - تلفون : ٨٦١١٧٨/٨٠٠٨١١/٨٦٢٩٠٥
تلفاكس : ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس : ٤٠١٣٩ LE كتاب برقياً : الكتاب.ص.ب : ٥٧٦٩-١١ بيروت. لبنان





بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧١].

وبعد:

فلقد منّ الله سبحانه وتعالى على البشرية كلها بهذه الشريعة السماوية الخالدة، التي جاءت لتنظم حياتهم، وتسمو بأرواحهم، وتزكي نفوسهم، وتصلح أحوالهم، وتنقذهم من جهالة النفس وشهواتها، وتأخذ بأيديهم وعقولهم إلى مراتب الشرف، ومواطن العلم.

واتسمت هذه الشريعة بالشمولية، والدقة، والوسطية، فأعطت كل جانب من جوانب الحياة ما يستحقه من بحث ودراسة وتوجيه، واهتمت بكل ما يحيط بالبشر، ويجعل حياتهم هانئة مستقرة سعيدة.

ولقد ظن كثير من الناس أن الإسلام هو سبب تأخرهم، وفرقتهم، وجهلهم، وضعفهم، وتناحرهم، وتأخرهم عن الأمم الراقية المتقدمة، فأخذوا يتبعون الأفكار الزائفة، ويلهثون خلف المبادىء الفاسدة، ويحاولون ـ عبثاً ـ أن يتبعوا مذهباً

فلسفياً حديثاً، أُلبسَ هالة براقة خادعة، وراحوا يدافعون عن هذه المبادىء والأفكار والمذاهب، ويخدعون أنفسهم بحجج واهية ضعيفة ترضي شهواتهم، وتناسب أهواءهم، وتتماشى مع رغباتهم الشيطانية، ونزعاتهم الفاسدة.

ثم تبين بعد مرور الزمن، وتتالي السنين، أن كل هذه الأفكار والمبادىء قد اندحرت واندثرت، ولم يبق منها إلا أسماء تتردد في كتب التاريخ، وثبت بطلان مذاهبهم، وزيف حججهم، وفراغ مبادئهم، وتبين لهم بشكل واضح وجلي، وبيان لا يقبل الريب والشك أن الإسلام هو الدين الذي لا يمكن لأي مبدأ أن يزاحمه، ولأي فكر أن يزيحه عن قلوب أتباعه الذين ساروا بهديه، ونهجوا نهجه.

ذلك لأن أفكارهم وآراءهم ومذاهبهم ما هي إلا وليدة فكر بشري، أو تأملات فيلسوف حالم، أو صرخات مجموعة عاشت حالات معينة من القهر والظلم والمعاناة، أما الإسلام فهو شريعة منزلة من رب العالمين، وخالق الكون ومبدعه - سبحانه وتعالى - وهو الذي تولّى حفظه والعناية به.

قال تعالى:

﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى:

﴿**إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾ [آل عمران: ١٩].

المقدمة

التوبة

يتعرض الناس في كل زمان ومكان لضعف الإيمان بسبب ابتعادهم عن المحيط الإيماني في فترة طويلة، أو ابتعادهم عن معلّمٍ مرشد صالح يهذب أخلاقهم، ويزكي نفوسهم، ويكون لهم قدوة وأسوة صالحة، أو ابتعادهم عن العلم الشرعي، والثقافة الإسلامية التي تحرك مشاعر الإيمان في نفوسهم، أو. . . وهذا الضعف قد يستمر فترات طويلة، وقد يودي في نهاية الأمر بصاحبه إلى الانحراف في مهاوي الفساد والرذيلة، والانزلاق في تيارات الشرك والضلال، والابتعاد عن كل مظاهر وشعائر الإسلام.

وكي لا يصل المسلم إلى هذه الطرق، وكي لا يبقى أسير الفساد والانحلال، أوجد له الإسلام طريقاً هادياً، ودواء ناجعاً، وسبيلاً ينير له درب الأمل والعودة إلى ظل الإسلام وهديه.

وهذا الطريق يبدأ بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله عز وجل بصدق، وثبات، وإخلاص. أحد.

والتوبة ـ كما عرّفها العلماء ـ هي: رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين.

وقيل: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة، والصمت، وأكل الحلال.

وقال الغزالي: التوبة عن الذنوب، بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين.

التوبة في القرآن الكريم:

ورد ذكر التوبة ومشتقاتها في القرآن الكريم حوالي (٨٥) مرة. بيّن فيها سبحانه كيف تاب من سبق من الأمم، وجزاء التوبة وثوابها، وعقاب من لم يتب في الحياة الدنيا.

من ذلك:

١ - بالتوبة ينال العبد المغفرة من الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢].

٢ - ينال المؤمن بالتوبة محبة الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿إن الله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٣ - التوبة النصوح تكفر الذنوب.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ [التحريم: ٨].

٤ - من تاب في الدنيا تاب الله عليه في الآخرة.

قال تعالى:

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم﴾ [البقرة: ١٦٠].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾ [المائدة: ٣٩].

وقال تعالى:

﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ [التوبة: ١١٨].

٥ - بين الله سبحانه أن توبة من حضره الموت لا تقبل، لأنه تاب عندما عرف نهايته، أما عندما كان بكامل قوته وصحته اجتنب التوبة وابتعد عنها.

قال تعالى:

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ [النساء: ١٨].

التوبة في السنة المطهرة:

بحث التوبة في السنة المطهرة بحث واسع، تناول الإمام ابن تيمية أجزاء كبيرة منه في بحثه الذي بين أيدينا، ونذكر بعض الأحاديث التي تناولت التوبة والرجوع إلى الله.

١ ـ كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله كل يوم سبعين أو مئة مرة.

كما في الحديث الشريف:

(يا أيها الناسُ، توبوا إلى اللهِ، فواللهِ إني لأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرةً).

وفي حديث آخر كان أصحاب رسول الله ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم:

(ربِّ اغفرْ لي، وتب عليّ إنك أنت التوابُ الرحيم) مئة مرة.

٢ ـ الله يقبل توبة ومعذرة العبد.

قال رسول الله ﷺ:

(من اعتذرَ إلى اللّهِ قبلَ اللّهُ عذرَه).

وقال:

(لا أحدُ أحبَّ إليه العذر من الله).

٣ ـ الله يفرح بتوبة التائب من المسافر الذي فقد راحلته وطعامه وشرابه.

قال رسول الله ﷺ:

(للهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم كان على راحلةٍ بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد آيس من

راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال ـ من شدة الفرح ـ: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح).

وهناك تفصيلات كثيرة يجدها القارىء الكريم في ثنايا الكتاب.

شروط التوبة:

بيَّن العلماء أن للتوبة ثلاثة شروط:

١ ـ الندم على ما سلف منه في الماضي.
٢ ـ الإقلاع عنه في الحال.
٣ ـ العزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

وهذه الثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

حقائق التوبة وعلاماتها:

التوبة النصوح لها علامات نذكر منها:

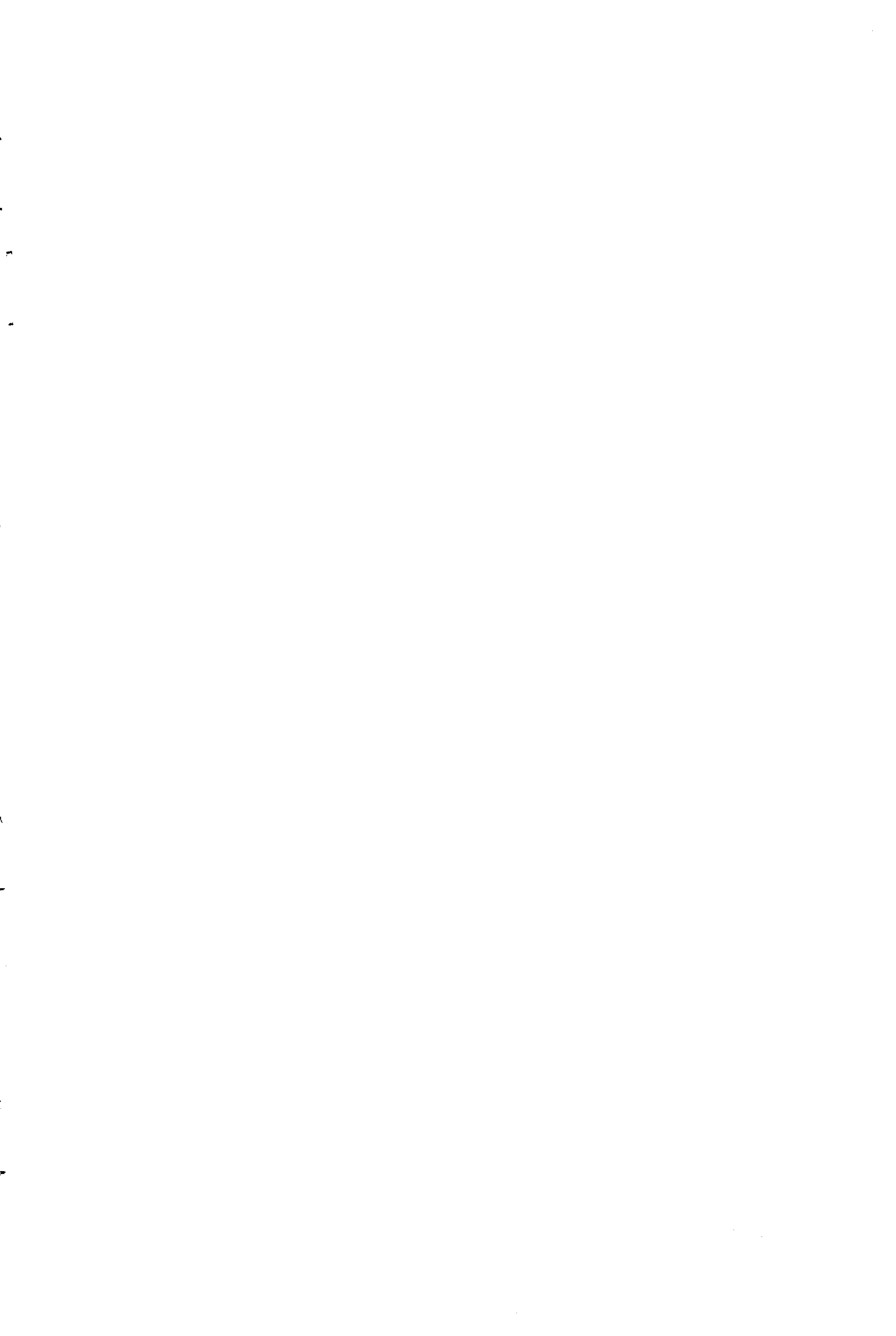
١ ـ مخالطة الصالحين، والعزلة عن قرناء السوء.
٢ ـ أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.
٣ ـ الانقطاع عن الذنوب، والإقبال على الطاعة.
٤ ـ أن التائب لا يزال الخوف مصاحباً له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر، وأمنه لمكر الله دائم.
٥ ـ الإعراض عن الدنيا بقلبه، والإقبال على الآخرة.
٦ ـ انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا على قدر الجناية وعظمها.
٧ ـ كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، ولا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، إنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

يقول ابن القيم: وما أحلى قوله في هذه الحال:

«أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني، وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

ويجب أن نعلم أن تأخير التوبة من الذنب هو ذنبٌ تجب التوبة منه، فإذا تاب العبد من ذنبه وجب عليه أنْ يتوب توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب.

نسأل الله التواب الرحيم، أن يغفر زلاتنا، ويمحو خطايانا، ويقبل توبتنا، إنه هو الغفور الرحيم.



مقدمة التحقيق

هذا الكتاب في الأصل جزأين أساسيين.

الأول: مأخوذ من مجموع فتاوى الإمام «ابن تيمية».

الثاني: رسالة كاملة أجاب فيها الإمام رحمه الله عن الحديث المشهور الذي رواه «أبو ذر الغفاري» رضي الله عنه وأوله:

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) ووجدنا أنه من النادر أن توجد الفتاوى في كل منزل ومكتبة، وأن المطلع على ما فيها قلة من الناس، فأحببنا أن نخرج منها بحثاً عن التوبة والاستغفار، نضعه أمام أكبر عدد ممكن من القراء، ليستفيدوا منه، وينتفعوا بما جاء فيه.

وكان عملنا في التحقيق.

١ ـ قمنا باستخراج كل ما له صلة ببحث التوبة والاستغفار من كتاب «فتاوى الإمام ابن تيمية» الذي جمعه ورتبه الشيخ «عبد الرحمن بن قاسم النجدي» وابنه «محمد» جزاهما الله كل خير، ووضعنا ما جمعناه في أول الكتاب.

٢ ـ أضفنا للكتاب شرح الإمام «ابن تيمية» لحديث أبي ذر السابق. والمأخوذ من مجموع الرسائل المنيرية (٣/ ٢٠٥).

٣ ـ قمنا بتخريج الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها المعتمدة.

٤ ـ وضعنا عناوين لكل فقرة من فقرات الجزأين.

٥ ـ عمدنا إلى ضبط الأحاديث، والأخبار، وما أشكل لفظه من الكلمات المبهمة والغريبة، مع شرحها وإيضاحها.

٦ ـ ترجمنا لأصحاب الأخبار والأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب عدا المشاهير، أو ما أبهم علينا.

٧ ـ ابتدأنا الكتاب بترجمة وافية للإمام «ابن تيمية» رحمه الله.

وختاماً نسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به جميع المسلمين، والله ولي التوفيق.

المحققان

محمد عمر الحاجي   **عبد الله بدران**

الامام ابن تيمية

١ ـ بيئته وعصره:

في أواخر القرن السابع للهجـرة بزغ نجم «ابن تيميـة» ـ رحمه الله ـ في وقتٍ امتاز بكثرة الأحداث، وتعددها وتواليها، فالدولة الإسلامية قد انحلت إلى دويلات، كلٌ منها يتربص بالأخرى لينقض عليها، وأصبح الملك ـ كما أخبر المصطفى عليـه الصلاة والسلام ـ ملكاً عضوضاً، واضطربت الأمور. . .

وأغار الصليبيون على عقر الإسلام لكنّ الله أذن بالنصر للأمة المحمدية، وما أن هدأت الأمور حتى أتى التتار، وزاد نشاط الفِرَق من الباطن، وفي الأندلس أيضاً انقسمت الدولة إلى دول صغيرة وبلغ الأمر أن كل مدينة أصبح لهـا قائـد، وجيش، وجند. . . والعدو يقتنصها واحدةً تلو الأخـرى. . وهكذا حتى انقض أخيـراً على ما تبقى منها وابتلعها وحدث ما حدث. . .

في هذا الخضم المتلاطم ولد الإمام «ابن تيميـة» ـ رحمه الله ـ وعـاش بقلب مؤمنٍ متوثب، فهل تأثر بما يدور حوله؟ هل كان هـو مؤثراً بمـا حولـه؟ هل استسلم لكل هذه الفتن والآراء والأعداء؟

٢ ـ اسمه ونسبه ونشأته:

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن الشيخ أبي البركات. . .

ولد في العاشر من ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة النبوية.

وكان مولده في «حران»، وبقي فيها حتى بلغ السابعـة من العمر، حيث أغـار التتار عليها ففر أهلوها إلى (دمشق) وفي الطريق عانـوا المصاعب والمخـاطر، كـل

هذا طبع في نفس - الإمام - الكره الشديد للتتار، مما جعله عندما كُبر في مقدمة المجاهدين ضد التتار.

وما إن استقربهم المقام في «دمشق» حتى ذاعت شهرة والده بالعلم والورع، فتولى مشيخة «دار الحديث السكرية» وأصبح مدرساً في «الجامع الأموي»، وكان الإمام وقتها يتربى بين العلماء أقران والده وخاصة أنه لوحظ عنه الذكاء المفرط وسرعة الحفظ والبديهة والجرأة. . .

في هذه البيئة العلمية حفظ «ابن تيمية» القرآن وهو صغير السن، ثم اتجه إلى حفظ الحديث واللغة، وتعرف الأحكام الفقهية وحفظ ما شاء الله له أن يحفظ وقد تميز منذ صغره بثلاثة مزايا:

١ - الذاكرة الحادة، والعقل المستيقظ، والفكر المستقيم، والنبوغ المبكر.
٢ - الجدّ والاجتهاد، والانصراف إلى المُجدي من العلوم والدراسات.
٣ - تفتّح قلبه ونفسه لكل ما يدور حوله رغم انكبابه على العلم والحفظ والاستذكار.

سمع الإمام «ابن تيمية» «مسند أحمد»، و«صحيح البخاري» و«مسلم» و«الترمذي» وسنن «أبي داود» و«النسائي» و«ابن ماجة» و«الدارقطني» وكلٍ منها سمعه مرات عديدة، وأول ما حفظ من الحديث:

«الجمع بين الصحيحين» «للإمام الحميدي»، وكذلك درس الرياضيات وعلوم العربية وأخبار القدماء، وبرع في النحو براعة واضحة حتى أنه خالف آراء «سيبويه» في بعض المسائل!

كذلك تبحّر في علوم تفسير كتاب الله عز وجل، وراجع الموسوعات التي كُتبت في ذلك، والذي زاد من ثقافته وتحصيله للعلم.

إنَّ «دمشق» يومها كانت عُشَّ العلماء، خاصة بعد أن هرب العلماء من الأندلس إلى المشرق العربي، وبعد أن هرب العلماء من «بغداد» على أثر سقوط الخلافة الإسلامية.

وظهرت مدارس مختصة بعلوم الحديث تدرس أمثال: «النووي»، و«ابن دقيق العيد»، و«الزملكاني» وغيرهم. كما ظهرت مدارس في الفقه كمدرسة

الحنابلة، ومدرسة الشافعية وغيرها.

وظهر وقتها مذهب «أبي الحسن الأشعري» في العقائد وانتشر ولم يخالفهم إلا الحنابلة يومها.

وكان ـ الإمام ـ أحد خريجي المدارس الحنبلية هذه، ليتجه بعد ذلك إلى الاهتمام بمعرفة آراء الصحابة، خصوصاً فقه الذين امتازوا بالعلم والخبرة والتجربة «كعمر بن الخطاب»، و «علي بن أبي طالب»، و «ابن عباس»، وحرص أيضاً على معرفة فتاوى التابعين الممتازين «كسعيد بن المسيب»، و «النخعي»، و «القاسم بن محمد».

وهكذا قال عنه أحد معاصريه: [لقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فنٍ من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله].

٣ ـ من تلقى عليهم العلم:

كان لوالده اليد البيضاء في تلقي علومه، حيث كان عالماً جليلاً معروفاً بباعه الطويل في علوم الحديث، حتى توفي والده وهو في الحادية والعشرين من عمره، فتنقل من هذا إلى ذاك ـ بعقل حرٍ وقلب واعٍ ـ يسمع من هذا وينتقي، ويسمع من الآخر وينتقي، حتى قال صاحب كتاب «العقود الدرية» ما نصه:

[شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتين، وسمع كتب الحديث المعتمدة مرات ومرات].

ولم يترك الإمام مناظرةً ـ يومها ـ أو محفلاً جامعاً، أو مجالس للعلماء معروفة إلا سارع لحضوره وإدلاء رأيه... حتى إذا اشتد ساعده، ووثق من علمه، اتجه إلى شيء آخر، اتجه إلى علماء ومشايخ بعيدي الإقامة، وقديمي العهد به، ومختلفي التفكير والآراء، لكن كيف يلتقي بهم؟

انكبّ على مطالعة كتبهم، فبدأ بجمع شتات تفسيراتهم للقرآن الكريم، وأكثر ما عني هنا بما فسره السلف، وكان ـ رحمه الله ـ يقول: [ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله تعالى الفهم، وأقول يا معلم إبراهيم

علمني، وأقول يا معلم إبراهيم فهمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأدعو الله أن يلهمني الصواب].

وجاء في «مجموعة الفتاوى»: أن ما جمعه من التفسير الوارد عن السلف أكثر من ثلاثين مجلداً كتب بعضها وبعضها لم يكتب، كذلك قرأ بالفقه الحنبلي كتاب «المغني: لابن قدامة ت ٦٣٠ هـ» وهذا الكتاب الذي يهتم كثيراً بآراء فقهاء الصحابة، وآراء فقهاء التابعين أثر فيه تأثيراً كبيراً، واتجه به إلى الخط السلفي.

لكن مع ذلك فقد قرأ كتب «الطحاوي»، و«الخصاف»، و«الحصيري»، و«السرخسي»، في المذهب الحنفي. و«الأم»، و«المهذب»، و«المجموع»، و«مختصر المزني»، و«الوجيز للغزالي»، في المذهب الشافعي. وقرأ كتب «ابن رشد الكبير»، و«ابن رشد الحفيد» وغيرها، في المذهب المالكي.

وتأثر كثيراً وخاصة ـ بطبع الحدة ـ من «ابن حزم» حيث قرأ كتبه خاصة: «المحلى» و«الإحكام في أصول الأحكام».

قال عنه صاحب «الكواكب الدرية»: [كان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا يذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها من الكتاب والسنة].

كذلك علوم العربية لم يترك مجالاً فيها إلا وتبحّر به، حتى إنه خالف شيخ النحاة وقتها وهو «أبو حيان النحوي» حتى صرّح يوماً قائلاً: [ما رأت عيناي مثل ابن تيمية].

ونظراً لضرورات العصر فقد درس كتب «الغزالي» (فلسفة وعلم كلام و...). ودرس آراء الفرق المختلفة، كالجهمية في إرادة العبد ومشيئة الرب، ويقارن مع آراء «الأشعري»، وآراء المعتزلة، من هنا ندرك السر إذا قرأنا له في كتاب «عرش الرحمن» كلاماً عجيباً وهو يتكلم عن الأفلاك مثلاً كذلك قرأ رسائل إخوان الصفا. ولا عجب إذا قلنا إنه قرأ كتب النصارى.

وإلّا فمن أين له أن يؤلف كتاباً سماه [الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح]؟

وهذا ما جعل العالم الجليل «محمد أبو زهرة» يقول: [نستطيع القول أن

ـ ابن تيمية ـ قرأ كتب العلوم الإسلامية كلها، وكتب الفلاسفة المعروفة في عصره، وقرأ ما وصله من كتب الأديان السابقة].

٤ ـ تلامذتــه:

لم يعرف في عصره شيخ كثر تلامذته ومريدوه كما كثر تلاميذ «ابن تيمية» خاصة تنقله بين الشام ومصر، وبين الإسكندرية والقاهرة، مع تفرغه التام للعلم، مع عكوفه الدائم على الفحص والخطابة والمناظرات أدى ذلك إلى ازدياد عدد تلاميذه.

لكن يلاحظ أن تلاميذه نوعان: لأن دروسه نوعان.

١ ـ **دروس عامة**: يلقيها في المسجد الجامع خاصة الأموي بدمشق يوم الجمعة، تميزت بالإرشاد وحقيقة الإتباع، وتجنب الابتداع، والعودة بالناس إلى الجيل الأول من الصحابة والتابعين دون بدعٍ مصطنعةٍ، وكان درسه هذا بعيداً عن علم الكلام والمنطق، سهلاً، محبباً للعامة.

٢ ـ **دروس خاصة**: على من سيكونون ورثة علمه وعلى القائمين على تركته الفكرية الهائلة، تميزت هذه الدروس بالمناقشات والأدلة العقلية والنقلية، والترجيح، والرد على الفرق الضالة، وبيان كل الأخطاء والعثرات، وكان يلقي هذه الدروس في مدارس الشام وفي مصر أحياناً، وكان أكثر التلاميذ من الحنابلة وبعض الشافعية، لكن عددهم لا يحصى، خاصة لأن الإمام طال به الزمان في التدريس والإرشاد، فقد ألقى دروسه نحواً من ستة وأربعين عاماً دائباً لا يمل ولا يكل، وعُرف عنه في الدروس اللسان العربي المبين، والفصاحة، وسرع البديهة، وقوة الحجة، والجرأة لنصرة فكرته، مما زاد من عدد تلاميذه، بل أصبح الكثير منهم مريدين له، متحمسين معجبين، فكثر التحدث باسمه في المجالس العلمية حتى قال حجة العصر في الحديث والعلوم وقتها الإمام «ابن دقيق العيد»:

[رأيت رجلاً ـ ابن تيمية ـ جمع العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد].

وانتقل نشاطه ـ إضافة إلى الدروس ـ إلى الإجابة عن كل ما يخطر على بال الناس، فصار مقصداً يُسأل فيجيب بالكتاب، فيذيع ويشتهر بين الناس، ويتناقله

الناسخون، وكان من ذلك سؤال أهل «حماة» عن آية ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ فأجابهم «بالرسالة الحموية» المعروفة، ولا يكاد المرء أن يحيط بتلامذته، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أبرزهم:

١ ـ **الإمام ابن قيم الجوزية**: الذي لازمه ملازمة التلميذ لشيخه، فحمل من علومه ودافع عنه، وذكر كثيراً في كتبه عن علوم شيخه مثل «زاد المعاد» و «إعلام الموقعين»، لكنه كان هادئاً مطمئناً أكثر من شيخه، منصرفاً للعبادة والزهد، ورعاً إلى حد عجيب، ويظهر لنا ذلك واضحاً في كتبه القيمة مثل: «مدارج السالكين» و «الكلم الطيب» و «حادي الأرواح» و «إغاثة اللهفان» و «مفتاح دار السعادة» وغيرهم.

٢ ـ **الحافظ ابن كثير**: صاحب «التفسير العظيم»، وصاحب «البداية والنهاية» في التاريخ... وغيرها.. ولا بدّ من الإشارة إلى أن تلامذته المقربون نالهم العذاب والاضطهاد والسجن، خاصة عندما تم القبض على الإمام وأودع السجن، ثم خرجوا معه إلا أقرب الناس إليه وأكثرهم لصاقاً به وهو تلميذه الأول ابن القيم فقد بقي بعدهم مدة.

٥ ـ آراؤه وفقهه ومنهجه:

١ ـ **منهجه العام**: نستطيع اختصاره بما يلي:

ـ لا يثق بالعقل مطلقاً: لذا خالف الفلاسفة واعتقاداتهم وخاصة معلمهم أرسطو.

ـ لا يتبع الرجال على أسمائهم: ونقل أن «أبا حنيفة» قال: [هذا رأي، فمن جاء برأي خير منه قبلته].

● ونقل عن الإمام «مالك»: [إنما أنا بشر أصيب وأخطىء، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة].

● ونقل عن «الشافعي»: [إذا صح الحديث، فاضربوا بقولي عرض الحائط].

● ونقل عن «أحمد»: [لا تقلد دينك الرجال، فإنه لا يسلم أن يغلطوا].

ـ أصل الشريعة القرآن الكريم: والرسول عليه الصلاة والسلام قد فسره كله،

والصحابة تلقوا منه ثم التابعون، وما عدا ذلك فلا.

- لم يكن متعصباً في تفكيره، لذا تقيد بالكتاب والسنة وما روي عن الصحابة، ثم خالف، وأخذ من أي مكان حتى من مخالفيه أحياناً.

٢ - منهجه في التفسير: أولاً تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بالتابعين، وأنكر أن يُفسر القرآن بالرأي، وقد خالفه بعض العلماء في ذلك «كالغزالي».

٣ - منهجه في العقيدة: درس الفلسفة لا ليطلب الحقائق من ورائها، بل ليبين بطلانها وخاصة ما يعارض الدين منها، فهو آمن بما جاء به المصطفى صلوات الله عليه أولاً، ثم أراد أن ينفي عنه خبث الفلسفة، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته، ثم ليبين بطلانه بعد معرفته.

ومن هنا نعلم سرّ تهجمه على الفلاسفة لأنهم جعلوا الحاكم محكوماً، أي جعلوا النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بمقدمات فلسفية واهية، ويؤكد - الإمام - على أن الطريق الصحيح في العقيدة هو اتباع القرآن الكريم لما فيه من أدلة وحجج تثبت وحدانية الخالق، وصفاته، واليوم الآخر، والمعاد، وهو ليس للإخبار فقط، بل فيه الدليل على صحة الخبر، فهو في نفسه يحمل دليل صدقه.

ومما يتميّز به هو إطنابه في الحديث عن العقائد، خاصة ما يتعلق بالوحدانية، وهنا يبرز ردّه المفحم على الطوائف وما يسميهم هو (أهل الزيغ: كالمعتزلة، والاتحادية، والفلاسفة، والباطنية، والأشاعرة).

كذلك تكلم بالتأويل والمتشابه، ورد على العلماء ورُدّ عليه، وجرت مناظرات طويلة في ذلك. كذلك ناصر رأي إمامه «ابن حنبل» في [أن القرآن غير مخلوق] وأن من يقول غير ذلك مبتدع، كذلك حمل بعنف على الجبرية، والقدرية، والأشاعرة، والمعتزلة في مسألة: أفعال العباد ومشيئة الله عز وجل.

واهتم كثيراً بمحاولة إرجاع الناس إلى صفاء العقيدة، لذا حارب التقرب بالأولياء، ومنع الاستغاثة بغير الله، ولم يستسغ التقرب بالموتى من الأنبياء والصالحين، ولكن الأمر الذي أثار ضجة شديدة هو قوله: [الزيارة إلى قبر رجل صالح بعينه، أو نبي بعينه لا يجوز] وهذا أحد أسباب زجّه في السجن، وأحد

أسباب الزوبعات التي أثارها الحاسدون عليه خاصة موضوع [زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام] ومن الذين طالهم نقده الصوفيون وخاصة «ابن عربي» و«ابن الفارض»، و«ابن عطاء الله السكندري»، وألّف في ذلك رسالة سماها «رسالة مذهب الاتحاديين» و«الرسالة التدمرية».

٤ ـ **منهجه في الفقه**: عرف بنزعته الحنبلية وتفضيله إياه على بقية المذاهب الأربعة، ويتقيد في استنباطه بأصوله، ولكن مع ذلك يخالفه أحياناً ويمكن القول إن هناك أمور ثلاثة جعلته فقيهاً مجتهداً وهي:

ـ أنه يقدر الأئمة الأربعة من ناحية منازلهم الفقهية أبلغ التقدير.
ـ أنه يوصي الفقيه المحقق ألا يلتزم مذهباً معيناً إذا وجد الحق في غيره.
ـ أنه يترك المذاهب كلها إذا وجد حديثاً يخالفها.

٦ ـ موقعه من الاجتهاد:

يكاد علماء المذاهب الأربعة يجمعوا على أن مراتب الاجتهاد خمسة وهي:

ـ المجتهد المستقل: الذي لا ينتمي إلى مذهب، ولا يتقيد بأصول خاصة لإمام آخر ويخالف غيره.

ـ المجتهد المنتسب: المجتهد في الفروع والأصول، لكنه يلتزم مذهباً ما، فيلتقي معه في الاستنباطات...

ـ المجتهد المقيد: ضمن ما يحرره، ويحكم به ويتحدث عن فروع إمام المذهب، ولا يتجاوز أصول إمامه واستنباطه.

ـ المجتهد الحافظ: حافظ لمذهب إمامه، عارف بأدلته، يقلّ عن الذي قبله أنه قاصر في أدوات الاجتهاد..

ـ المجتهد الذي لا يقرر أدلة مذهبه، ولا يتجاوز المنقول منها عن إمامه...

فأين يوضع الإمام ابن تيمية من هذه المراتب؟؟

أُثير جدل وما زال عن ذلك بين متعصب له وناقد له و... ووسطية الأمر ما يقوله الإمام «محمد أبو زهرة»: [إنه أعلى من المراتب الثلاثة الأخيرة لأنه أكبر

منها، ذلك لأنه متبحّر بالسنة، وتفسير القرآن الكريم، وعلوم السلف، كل أولئك يجعله بلا ريب في مرتبة أعلى من هذه الثلاثة، بل هو يوضع مع العالمين بالأصول ذوي الاستقلال في الجملة].

وعرف عنه المخالفات للأئمة في الفقه، مثل الطلاق في حالة الحيض قال: [إنه لا يقع] مؤيداً بذلك رأي الشيعة. وأيّد أن الطلاق الثلاث (بلفظ الثلاث) في مجلس واحد يقع طلقة واحدة.

وقال: بأن الحلف بالطلاق لا يقع من خلال الطلاق ويجب فيه الكفارة فقط.

وقال: بأن الزكاة لا تعطى لفاسق، وأنها تعطى للأصول والفروع إن لم يكن له كسب يكفيه ويكفيهم. وإلى غير ذلك مما تضمنته مجموعة فتاويه. . .

٧ ـ الإمام العالم والفارس:

حينما أحاط التتار بجموعهم أسوار «دمشق» سنة (٧٠٢) خاف الناس، واستعدت الجيوش للقاء، فتحالف العلماء والقضاة على أن يلاقوا العدو، وكان دوره ـ رحمه الله ـ أن يثبت القلوب، ويعدهم بالنصر المؤزر ﴿ومن بغي عليه لينصرنه الله﴾ ثم يحلف يميناً بالله قائلاً: [إنكم لتنصرون] فيقول له بعض الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: أقولها تحقيقاً لا تعليقاً.

ثم يحمس الناس (هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق منهما بالأمر، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة) ثم يقول للناس: [إذا رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني].

ثم خرج في الصف الأول معلناً الجهاد، ووصلت الجموع إلى مكان خارج دمشق (يقال له شقحب) وكان في رمضان، وثبت الإمام ثبات الشجاع الذي لا يهاب إلا الله، وأفتى للجند بالإفطار ليتقووا على القتال، وروى لهم قول المصطفى ﷺ يوم الفتح:

[إنكم ملاقوا العدو، والفطر أقوى لكم] ثم يدور بين الجند ويأكل أمامهم

ليتشجعوا به. ودام الأمر كذلك أياماً حتى انحسر الأمر أن انهزمت فلول التتار، فلاحقهم «ابن تيمية» والجنود. وهكذا حقق الله النصر على يد هؤلاء الواثقين بنصر الله تعالى..

وهذه هي حالة العالم المؤمن، لا يقعد في بيته وينعزل الناس، لا ينظر إلى المشاكل من برج عاجي أبداً، إنما مثال المؤمن العالم المقتدي بالصحابة والنبي محمد عليه الصلاة والسلام أن يعيش الحديث بكل حيثياته، أن يتفاعل مع ما يدور حوله، أن ينزل إلى الساحة حتى لو كان الأمر سيصل به إلى أن يضحي بماله، أو أحد أولاده، أو بيته، أو حتى نفسه، هذه الجرأة المجتمعة: بين السيف، والقلم، واللسان، جمعها الله في رجلٍ واحد يومها هو الإمام «ابن تيمية» رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٨ ـ مصنفاته:

ـ في التفسير: قيل إنه لو جمع تفسيره لبلغ ثلاثين مجلداً، وله رسالة قيمة في منهاج التفسير.

ـ في العقائد: كثيرة جداً منها:
١ ـ كتاب الإيمان.
٢ ـ كتاب الاستقامة.
٣ ـ اقتضاء الصراط المستقيم.
٤ ـ كتاب الفرقان.

٥ ـ رسائله: الحموية، التدمرية، الواسطية، البغدادية، الكيلانية، البعلبكية، الأزهرية، والإكليل، ورسالة مراتب الإرادة، والقضاء والقدر، وبيان الهدى من الضلال، ومعتقدات أهل الضلال، ومعارج الوصول، والسؤال عن العرش، الفرق الناجية.

ـ في مناهج الاستدلال:
١ ـ كتاب نقض المنطق.
٢ ـ الرد على المنطق.
٣ ـ تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل.

وله كتب أخرى متفرقة المواضيع منها:

١ - منهاج السنة.

٢ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

- في الفقه: له رسائل ضخمة في ذلك منها:

١ - رسالة القياس.

٢ - نكاح المحلل.

٣ - كتاب العقود.

٤ - رسالة الحسبة. وله اجتهادات وفتاوى متناثرة.

وقد جُمعت بعض فتاويه فيما يسمى: الفتاوى الكبرى...

٩ - وفاتـه:

توفي - رحمه الله - سنة سبعمائة وثمان وعشرون الموافق للعام (١٣٢٨ م) وكانت وفاته في سجن القلعة (قلعة دمشق)، وضجت دمشق عندما سمعت نبأ وفاته، وشيعوه إلى مكان دفنه الواقع في حي الحلبوني (مكان الجامعة السورية) وكان يوم وفاته يوماً مشهوراً حيث خرج علماء دمشق وأهلها أفواجاً أفواجاً في جنازة لم تشهد دمشق قبلها جنازة بمثل عددها.

رحِم الله الإمام رحمةً واسعة، وأجزل مثوبته[1]...

---

(١) أخذت الترجمة هذه من المراجع التالية:

١ - ابن تيمية: حياته، عصره. للإمام محمد أبو زهرة.

٢ - ابن تيمية بطل الإصلاح الديني: محمود إسلامبولي.

٣ - ابن تيمية: عبد العزيز المراغي.

٤ - قاموس الأعلام: خير الدين الزركلي.

٥ - مقدمة كتاب الفتاوى الكبرى...

التوبة والاستغفار

التوبة تمحو كل الذنوب:

قال الله في كتابه العزيز:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾[1].

وقد قلنا: إن هذه الآية في حق التائبين، وأما آيتا النساء قوله:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2].

فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة، فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضاً بنصوص القرآن واتفاق المسلمين، وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق.

هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته، بل علق بالمشيئة فقال:

﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[3].

والآية الأولى المقصود بها، النهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله، ولا أن يقنِّط الناس من رحمته لذا قال بعض السلف:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٦.

[وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيسُ الناس من رحمة الله، ولا يجبرهم على معاصي الله].

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم إذا تاب غفر الله له وهذا يغري كثيراً من الناس.

والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة، فالأول: كالراهب الذي أفتى لقاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله، وكمل به مائة، ثم دُلَّ على عالم فأتاه فسأله، فأفتاه بأن الله يقبل توبته والحديث في الصحيحين[1].

والثاني: كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له: لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها، فييأس من أن يتوب. وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حالٍ تمتنع منه التوبة إذا أرادها؟

والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور: أن التوبة ممكنة من كل ذنب، وممكن أن الله يغفره، وقد فرضوا في ذلك من توسط أرضاً مغصوبة، ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم، فقيل: هذا لا طريق له إلى التوبة، والصحيح أن هذا إذا تاب قبل الله توبته.

أما من توسط الأرض المغصوبة فهذا خروجه بنية تخلية المكان وتسليمه إلى مستحقه ليس منهياً عنه ولا محرماً، بل الفقهاء متفقون أن من غصب داراً وترك فيها قماشه وماله إذا أمر بتسليمها إلى مستحقها، فإنه يؤمر بالخروج منها، وبإخراج أهله وماله منها، وإن كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل إخلائها.

ومثل هذا حديث الأعرابي المتفق على صحته لما بال في المسجد، فقام الناس إليه فقال النبي ﷺ: (لا تُزْرِمُوه)[2].

---

(١) رواه البخاري (٦/٤٧٣)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) رواه البخاري (١/٢٧٨)، ومسلم (٢٨٤)، والنسائي (١/٤٨)، وأبو داود (٣٨٠)، والبغوي في شرح السنة (٥٠٠)، والترمذي (١٤٧)، ومالك في الموطأ (١/٦٤)، وأحمد في المسند (٣/١٩١)، البيهقي في السنن (١٠/١٠٣)، والحميدي في مسنده (٢/٤١٩)، وابن حبان=

أي لا تقطعوا عليه بوله، وأمرهم أن يصبوا على بوله دلواً من مـاء فهو لما بدأ بالبول كان إتمامه خيراً من أن يقطعوه فيلوث ثيابه وبدنه. . . . وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه كما قال تعالى:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوبب جميعاً إنه هـو الغفور الـرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلمـوا له من قبـل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبـل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾[1].

وقال الله تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك بـه. ويغفر مـا دون ذلك لمن يشـاء﴾[2] وهذا في حق من لم يتُب، فالشرك لا يغفره الله، وما دون الشرك أمره إلى الله إن شـاء عاقب وإن شاء عفا عنه.

من مات بدون توبة فلا مغفرة له:

لكنه ذكر في غير موضع أنه لا يغفر لمن مات كافراً فقال تعالى:

﴿إن الـذين كفروا وصـدوا عن سبيل الله ثم مـاتـوا وهم كفـار فلن يغفـر الله لهم﴾[4].

وقال في حق المنافقين:

﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾[4].

وهـذه آية عـظيمة جـامعـة من أعـظم الآيـات نفعـاً، وفيهـا رد على كثيـر من

= (٢٤٦)، والبـزار (٤٠٩)، والـدارقـطني في السنن (١/١٣٢)، وأبـو يعلى في مسنـده (٣٤٦٧)، والطبراني في الكبير (مجمـع الزوائد: ٢/١٠).

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٦.

الطوائف. وقد تاب قادة الأحزاب، مثل «أبي سفيان بن حرب»[1] و«الحارث بن هشام»[2] و«سهيل بن عمرو»[3] و«صفوان بن أمية»[4] و«عكرمة بن أبي جهل»[5] وكانوا أحسن الناس إسلاماً وغفر الله لهم.

قال تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾[6] و«عمرو بن العاص» كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين، وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم: (يا عمرو: أما علمتَ أنّ الإسلام يجُبُّ ما كان قبلَهُ؟!)[7].

التوبة والاستغفار من ترك الواجبات:

وتكون التوبة والاستغفار من ترك الواجبات، وهذا يخفى على كثير من الناس كما في قوله تعالى:

﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾[8].

---

(١) أبو سفيان: صخر بن حرب: صحابي من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية. قاد الجيش ضد النبي ﷺ يوم أحد والخندق. أسلم يوم فتح مكة، فقئت عينه يوم الطائف وفقئت الأخرى يوم اليرموك. توفي بالمدينة المنورة عام (٣١ هـ).

(٢) الحارث بن هشام بن المغيرة: صحابي من سادات قريش في الجاهلية، شهد بدراً مشركاً، ثم شهد أحداً مشركاً حتى أسلم يوم فتح مكة، فتبعه أهل مكة، توفي بطاعون عمواس، وقيل في معركة اليرموك.

(٣) سهيل بن عمرو: خطيب قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، أسره المسلمون يوم بدر وافتدي، أسلم يوم فتح مكة، وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، مات بالطاعون في الشام عام (١٨ هـ).

(٤) صفوان بن أمية بن خلف: صحابي، فصيح، جواد، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم، شهد اليرموك ومات بمكة (٤١ هـ) له في كتب الحديث (١٣) حديثاً.

(٥) عكرمة بن أبي جهل: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، أسلم بعد فتح مكة وحَسُن إسلامه، وشهد الوقائع، واستشهد في اليرموك عام (١٣ هـ) وله ٦٢ سنة.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٧) رواه مسلم (١٢١)، وأحمد في المسند (٤/١٩٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/٢/٣١٢)، والبيهقي في السنن (٩/١٢٣)، والطبراني (مجمع الزوائد: ٩/٣٥١).
يجب: يقطع ويمحو الذنوب فلا يؤاخَذُ بها.

(٨) سورة غافر، الآية: ٥٥.

وفي قوله تعالى.

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[1].

وفي قوله تعالى:

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[2].

وفي قوله:

﴿أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾[3].

إذاً الاستغفار والتوبة يكون من ترك مأمور، ومن فعل محظور، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب، وترك (الإيمان) و(التوحيد) و(الفرائض) التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد، بل هي أعظم الصنفين، لأن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة: كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب، كعباد مشركي الهند، وعباد النصارى وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه.

الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة:

لقد أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه لأن الله لا يعاقِبُ إلا بعد إقامة الحجة كما في قوله تعالى:

﴿ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، أن لا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٣.

إلى أجل مسمى. ويؤت كل ذي فضل فضله، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾[1].

وكقوله تعالى:

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه. وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾[2].

وكقوله تعالى:

﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾[3].

وكقوله تعالى:

﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال: يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم﴾[4].

فدَّل على أنها كانت ذنوباً قبل إنذاره إياهم.

وقال عن هود عليه السلام:

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون. يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون. ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾[5].

كذلك قول صالح عليه السلام:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾[6].

---

(١) سورة هود، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧١.
(٤) سورة نوح، الآية: ٤.
(٥) سورة هود، الآية: ٥٢.
(٦) سورة هود، الآية: ٦١.

كذلك قول لوط لقومه:

﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾[1].

دل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم، بخلاف قول من يقول: [ما كانت فاحشة ولا قبيحة ولا سيئة حتى نهاهم عنها].

ولهذا قال لهم:

﴿أإنكم لتأتون الرجال. وتقطعون السبيل، وتأتون في ناديكم المنكر﴾[2].

وكذلك قول شعيب عليه السلام:

﴿أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[3].

بيّن أن ما فعلوه كان بخساً لهم أشياءهم، وأنهم كانوا عابثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم.

وهكذا قول إبراهيم الخليل عليه السلام:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾[4].

فهذا توبيخ على فعله قبل النهي، وأنهم يخلقون إفكاً قبل النهي كما في قوله تعالى:

﴿ماذا تعبدون أإفكاً آلهة من دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين﴾ - إلى قوله -: **﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾**[5].

كلٍ هذا يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي وقبل إنكاره عليهم، ولهذا استفهم استفهاماً منكراً فقال: **﴿أتعبدون ما تنحتون؟! والله خلقكم وما تعملون﴾**[6] أي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٨٥.
(٥) سورة الصافات، الآيات: ٨٥ - ٩٥.
(٦) سورة الصافات، الآية: ٨٥.

﴿حلق مـا تنحتون، فكيف يجـوز أن تعبدوا مـا تصنعونـه بـأيـديكم؟ وتـدعـون رب العالمين.

وتنازع الناس في (الوجوب والتحريم) هل يتحقق بدون العقاب على التـرك؟ والأصح: أن العقاب نوعان؛ نوع بالآلام، فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات.

ونوع بنقص الدرجات وحرمان ما كان يستحقه، فهـذا يحصل إذا لم يحصـل الأول والله يكفر سيئات المسيء وكما قال تعالى:

﴿إن تجتنبـوا كبائـر ما تنهـون عنه نكفـر عنكم سيئـاتكم ونـدخلكم مـدخـلاً كـريماً﴾[1] فيكفـرها تـارة بالمصـائب فتبقى درجة صـاحبها كمـا كانت، وقـد تصير درجته أعلى ويكفرها بالـطاعات. ومن لم يـأت بتلك السيئات، أعلى درجـة فيحرم صـاحب السيئات مـا يسقط بإزائهـا من طاعتـه، وهذا ممـا يتوب منـه من أراد أن لا يخسر، ومن فرط في مستحبات فإنه يتوب أيضاً ليحصل له موجبها، فالتـوبة تتنـاول هؤلاء كلهم.

كيفية التوبة:

وتوبة الإنسان على أوجه:

١ ـ أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

٢ ـ أن يتوب مما كان يظنه حسنات، ولم يكن كحال أهل البدع.

٣ ـ يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت بقوتـه وينسى فضل الله وإحسانه، وإنه هو المنعم بها. وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور.

لهذا قيل عن التـوبة: مقـام يستصحبه العبـد من أول ما يـدخل فيـه إلى آخر عمره. وجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة لذا قال تعالى:

﴿ليعـذب الله المنافقين والمنـافقات. والمشـركين والمشركـات. ويتـوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.

لذا كان من أواخر ما نزل قوله تعالى:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[1].

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثاً.

قال تعالى:

﴿والمستغفرين بالأسحار﴾[2].

أقاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون.

وسورة المزمل التي فيها قيام الليل ختمها الله بقوله:
﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[3].

وسورة المدثر أيضاً ختمها الله بقوله:
﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾[4].

ولم يقل أهل للتقوى بل قال ﴿أهل التقوى﴾: لأنه وحده أهل أن يتقى فيُعبَدَ دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى كما في قوله:

﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون؟!﴾[5].

وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله سبحانه:

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله. واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[6].

فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركين قبل الإسلام من توحيد الله وعبادته، وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه:

---

(١) سورة النصر.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٥٦.
(٥) سورة النحل، الآية: ٥٢.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٩.

﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[1].

وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيَّع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب.

ومن الأمور التي يستغفر ويتاب منها: ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عُذب. قال تعالى:

﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾[2].

فهو يغفر لمن يرجع عما في نفسه فلم يتكلم به، ولم يعمل، كالذي هم بالسيئة ولم يعملها، وإن تركها لله كتبت له حسنة، وهذا مما يستغفر منه ويتوب، فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب وإن كان لم يحصل العقاب ولا الذم، فإنه يفضي إليه فيتوب من ذلك، أي يرجع عنه حتى لا يفضي إلى شر، فيستغفر الله منه، أي يطلب من الله أن يغفر له فلا يشقيه به.

الإستغفار بالقلب واللسان:

وقد سُئل الإمام «ابن تيمية» رحمه الله: هل المراد بالاستغفار اللفظ أم القلب؟

فأجاب: المراد بالاستغفار بالقلب مع اللسان، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما في الحديث الآخر.

(لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار)[3].

فإذا أصرّ على الصغيرة صارت كبيرة، وإذا تاب منها غفرت، قال تعالى:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٣) رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس، والعسكري في الأمثال بسند ضعيف، ورواه ابن المنذري في تفسيره عن ابن عباس، وله شاهد عند البغوي، ومن جهة الديلمي عن أنس مرفوعاً، ورواه إسحاق بن بشر في المبتدأ عن عائشة، لكن حديثه منكَر، وأخرجه الطبراني عن أبي هريرة، ورواه الثعلبي وابن شاهين في الترغيب عن أبي هريرة. (كشف الخفاء: ٢/٥٠٨).

﴿والــذين إذا فعلوا فــاحشــة أو ظلمــوا أنفسهم ذكــروا الله فــاستغفــروا لذنوبهم﴾[1].

وإذا تاب توبـة صحيحة غُفـرت ذنوبـه، فإن عـاد إلى الذنب فعليـه أن يتوب أيضاً، وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً، وقد قال تعالى:

﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾[2].

لـذا قال «عمـر بن الخطاب» رضي الله عنـه [توبـة نصوحـاً: أن يتـوب ثم لا يعود] فهذه التوبة الواجبة التامة، ومن تاب من شرب الخمر ولبس الحرير فإنه يلبس ذلك في الآخرة كما في الحديث الصحيح:

(من شربَ الخمرَ ثمَّ لم يتُبْ منها حُرمها)[3].

من أي شيء يستغفر الإنسان؟؟

يقول تعالى: ﴿ومـا كان الله ليعـذبهم وأنت فيهم. وما كـان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾[4].

وللكلام هنا وجهان:

١ ـ في الاستغفار الدافع للعذاب: فالعذاب يكون على الذنـوب، والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب الذنوب فيندفع العذاب كما قال تعالى:

﴿... وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٣) رواه البخـاري (١٠/٢٥ ـ ٢٦)، ومسلم (٢٠٠٣)، ومـالـك في المـوطـأ (٢/ ٨٤٦)، وأبـو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٨٦٢)، والنسائي (٨/٣١٨)، والبغوي في شرح السنة (٣٠١٢)، والبيهقي في السنن (٨/٢٨٧)، وأحمـد في المسند (٢/١٩)، وابن مـاجه (٣٣٧٣)، والشـافعي في مسنده (٢/ ٩٢)، والدارقطني في السنن (٢٤٨/٤)، والطيالسي في مسنده (٢٥٤).
ومعنى: لم يشربها في الآخرة: أي لم يدخـل الجنة، لأن الخمـر من شراب أهـل الجنة، فـإذا لم يشربها في الآخرة لم يدخل الجنة، وهذا من باب الكنايات والتعليق.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٥) سورة هود، الآية: ٣.

فيبين أنهم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل أو قوة، ويقول أيضاً:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾[1].

٢ ـ وأما العذاب المدفوع فهو يعم العذاب السماوي، ويعم ما يكون من العباد، وذلك أن الجميع قد سماه الله عذاباً كما قال تعالى:

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾[2].

أما قوله تعالى:

﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض. . .﴾[3].

فقد ثبت في الصحيحين عن «جابر» عن النبي ﷺ «أنه لما نَزَل قوله **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾** قال: أعوذ بوجهك **﴿أو من تحت أرجلكم﴾** قال: أعوذ بوجهك، قال: فلما نزلت: **﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾** قال: هاتان أهون»[4].

يقتضي أن لبسنا شيعاً، وإذاقة بعضنا بأس بعض هو العذاب الذي يندفع بالاستغفار كما قال تعالى:

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. . .﴾[5].

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٤) رواه البخاري (٨/٢١٨)، والترمذي (٣٠٦٧)، وأبو يعلى (١٨٢٧)، وأحمد في المسند (٣/٣٠٩)، والبغوي في شرح السنة (٤٠١٦)، والحميدي في مسنده (٢/٥٣٠).
قال البغوي: قوله (عذاباً من فوقكم): أي الحجارة كما في قوم لوط، أو الطوفان كما في قوم نوح، (أو من تحت أرجلكم): الخسف كما على قارون، أو الريح كما على قوم عاد، (أو يلبسكم شيعاً) أي يخلطكم خلط اضطراب، وأراد به الأهواء المتفرقة، فيصيرون فرقاً مختلفة، (ويذيق بعضكم بأس بعض): هو وقوع الهرج حتى يقتل بعضهم بعضاً.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

الأنبياء المعصومون يتوبون!!

ثم إن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر، فكيف يقول الله في كتابه:

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾(١).

إن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب، وبتوبتهم يرفع الله درجاتهم ويعظم حسناتهم، وليست التوبة نقصاً بل هي من أفضل الكمالات وهذه التوبة كما يقال [حسنات الأبرار سيئات المقربين] والله أخبر عن توبة الأنبياء فقال آدم عليه السلام:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾(٢).

وقال نوح:

﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾(٣).

وقال الخليل عليه السلام:

﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾(٤).

وقال هو وابنه إسماعيل عليهما السلام:

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾(٥).

وقال موسى:

﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٧.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة الأعراف، الآيتين: ١٥٥ ـ ١٥٦.

وقوله: ﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾[1].

استغفار رسول الله ﷺ وتوبته:

ومن أواخر ما أنزل ربنا على نبيه ﷺ:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[2].

ويخاطب الله النبي والمؤمنين أن يستغفروا أو يتوبوا إليه لينـدفـع عنهم العقاب: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[3].

وكثيرة هي الأحاديث الدالة على ذلك منها قوله ﷺ:

(اللهمّ أنت الملكُ لا إلـهَ إلا أنت، أنت ربي وأنا عبـدُك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر ليْ ذنوبي جميعاً، إنهُ لا يغفُر الذنوب إلا أنت)[4].

ومنها:

(اللهم اغفر ليْ ذنبي كلَّهُ، دِقَّه وجِلَّه، علانيتَه وسرَّه، أوله وآخره)[5].

ومنها:

(اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلمُ به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدّي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلمُ به مني، أنتَ المقدمُ وأنت المؤخرُ لا إلَه إلا أنتَ)[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة النصر.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٤) سيأتي تخريجه تحت عنوان:
رسول الله ﷺ يعلم صحابته كيفية الاستغفار.

(٥) رواه مسلم (٤٨٣)، وأبو داود (٨٧٨)، والبغوي في شرح السنة (٦٢٠).
الدِقّ: بكسر الدال الدقيق، ويراد به الصغير.
والجلّ: بكسر الجيم، الجليل العظيم.

(٦) رواه البخاري (١١/١٦٥ ـ ١٦٧)، ومسلم (٢٧١٩)، والبغوي في شرح السنة (١٣٧١).

ومنها ما ثبت عنه في الصحيحين قوله:

(لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعملِهِ! قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدَني اللّهُ برحمةٍ منه وفضلٍ)[1].

وقوله:

(يا أيها الناس: توبوا إلى ربكُم، فوالذي نفسِي بيدهِ إني لأستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرةً)[2].

وقوله:
(كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطائينَ التوابون)[3].

وفي الصحيحين عن «ابن عباس» قال [ما رأيت شيئاً أشبه باللحم مما قال «أبو هريرة»] إن النبي ﷺ قال:

(إنّ الله كتبَ على ابنِ آدمَ حظُّه من الزنا، أدركَ ذلك لا محالة، فزنا العينينِ النظرُ، وزنا اللسان النطق) وفيه:

(والنفسُ تتمنى ذلكَ وتشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذبه)[4] حتى أهل الفواحش مأمورون بالتوبة، سواءً كانت الفاحشة مغلظة لشدتها وكثرتها كإتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط، أو غير ذلك، وسواء تاب الفاعل أو المفعول به، فمن تاب تاب الله عليه ولا سبيل للقنوط من رحمة الله كما قال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (١١/٢٥٢ - ٢٥٥)، ومسلم (٢٨١٦)، والبغوي في شرح السنة (٤١٩٢)، والنسائي (٨/١٢١)، وأحمد في المسند (٢/٢٦٤)، والبيهقي في السنن (٣/٣٧٧)، وابن المبارك في الزهد (٥٠٧).
وقوله: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة: أي يسترني بها، مأخوذ من غمد السيف، لأنك إذا غمدته فقد سترته.

(٢) رواه البخاري (١١/٨٥)، والبغوي في شرح السنة (١٢٨٥)، والترمذي (٣٢٥٥)، وابن حبان (٢٤٥٦).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/١٩٨)، وابن ماجة (٤٢٥١)، والترمذي (٢٥٠١)، والدارمي (٢/٣٠٣)، والبغوي في شرح السنة (١٣٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٢٩٢٢)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٤٤).

(٤) رواه البخاري (١٠/٢٢)، ومسلم (٢٦٥٧)، وأحمد في المسند (١/١٢٥)، وأبو داود (٢٦٥٧)، والبغوي (٧٥).

﴿وهــو الــذي يقبــل التــوبــة عن عبــاده ويعفــو عن السيئــات ويعلم مــا تفعلون﴾ (١).

وقد ورد عن النبي ﷺ:

(قال الشيطان: وعزتك يـا ربّ لا أبرحُ أغـوي بني آدمَ مَا دامت أرواحُهم في أجسادهم، فقال الربُّ تعالى: وعزتي وجلالي، وارتفـاع مكاني، لا أزالُ أغفـرُ لهم ما استغفروني) (٢).

ويقول النبي ﷺ كما يروي «أبو ذر»:

(يقولُ الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفـرتَ لك على مـا كان منـك ولا أبـالي، ابنَ آدمَ لو بلغتْ ذنـوبُك عَنـان السمـاء ثم استغفـرتني غفـرت لـك ولا أبالي، ابن آدم لو لقيتني بقُرابِ الأرض خطيئـةً ثمَّ لقيتني لا تشركْ بي شيئـاً لأتيتُك بقُرابها مغفرة») (٣).

فضيلة التائب على من لم يقع في الذنب:

والتائب من الذنب والكفر قد يكـون أفضل ممن لم يقـع في الكفر والـذنب، وإذا كـان قد يكـون أفضل فـالأفضل أحق بـالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة، وقـد أخبر الله تعالى عن إخوة يوسُف بما أخبر من ذنوبهم، وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى.

وقد قال تعالى:

﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ (٤).

فآمن لوط لإبراهيم عليه السلام، ثم أرسله الله إلى قوم لوط.

وقد قال تعالى في قصة «شعيب»:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/٢٩)، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٤)، وأحمد في المسند (٥/١٤٧).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾[2].

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار، ولا بد لكل عبد في التوبة، وهي واجبة على الأولين والآخرين.

قال تعالى:

﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3].

وقد أخبر الله تعالى بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ وآخر ما نزل عليه قوله تعالى:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[4].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده (سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)[5]. يتأول القرآن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٨.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٣.
(٤) سورة النصر.
(٥) رواه البخاري (٢/٢٤٧)، ومسلم (٤٨٤)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائي (٢/٢١٩)، والبغوي في=

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك:

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾(١).

رسول الله يعلم صحابته طريقة الاستغفار:

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يقول؛

(يا أيها الناسُ: توبوا إلى ربِّكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفـرُ اللّهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعينَ مرةً)(٢).

وفي صحيح «مسلم» عن «الأغرِّ المزني» عن النبي ﷺ أنه قال:

(إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفرُ اللّهَ في اليوم مائة مرة)(٣).

وفي السنن عن «ابن عمر» رضي الله عنهما أنه قال:

كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول:

(ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ علي، إنك أنت التواب الرحيم) مئة مرة(٤).

= شرح السنة (٦١٨).
ومعنى (يتأوّل القرآن) هو من كلام عائشة عليها السلام، أي أن رسول الله ﷺ كان يتأول قوله تعالى **﴿فسبح بحمد ربك﴾**.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأبـو داود (١٥١٥) والطيـالسي في مسنـده (٥٠٠)، والبيهقي في الآداب (١٠٢٥)، وابن المبـارك في الـزهـد (٤٠١)، والبغـوي في شـرح السنة (١٢٨٧)، والبيهقي في السنن (٥٢/٧)، وأحمد في المسند (٢١١/٤)، والحاكم في المستدرك (٥١١/١).
معنى ليغان: أي يتغشى القلب ما يلبسه.
قال الخطابي: وليس هذا على أنه كان يغشى قلبه شـك بعد المعـرفة، أو ريب بعـد اليقين، وإنما ذلك لأنه ﷺ كان لا يزال في مزيد من الذكر، والقربة، ودوام المراقبة، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأحـوال، وغلب عليه النسيـان لما فيـه من الطبـع البشري عـده على نفسه ذنباً، وفزع إلى التوبة والاستغفار.

(٤) رواه أبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤)، والترمـذي (٣٤٣٠)، وأحمد في المسنـد (٢١/٢)، والبغوي في شرح السنة (١٢٨٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٥٨).

وفي الصحيحين عن «أبي موسى» عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

(اللهمَّ اغفرْ لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكلُّ ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمتُ، وما أخرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدمُ، وأنت المؤخرُ، وأنت على كل شيء قدير)(١).

وفي الصحيحين عن «أبي هريرة» رضي الله عنه أنه قال:

يا رسول الله: أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة، ماذا تقول؟؟

قال: (أقول: اللهمَّ باعدْ بيني وبين خطاياي كما باعدت المشرق عن المغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوبُ الأبيض من الدنسِ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد)(٢).

وفي «صحيح مسلم» وغيره:

إنه كان يقول نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن «علي» رضي الله عنه وكرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح:

(اللهمَّ أنتَ الملكُ لا إلهَ إلا أنتَ، أنت ربي، وأنا عبدُكَ ظلمتُ نفسي، وعملتُ سوءاً فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت، واهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٢/١٩٠)، ومسلم (٥٩٨)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٢/١٢٨)، والبغوي في شرح السنة (٥٧٤).
وقوله (اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب) زيادة من النسائي وأبو داود.
قال ابن حجر: استدل به (أي الحديث) على جواز الدعاء في الصلاة بما ليس في القرآن خلافاً للحنفية، ثم هذا الدعاء صدر منه ﷺ على سبيل المبالغة في إظهار العبودية، وفيه ما كان للصحابة عليه من المحافظة على تتبع أحوال النبي ﷺ في حركاته، وسكناته، وإسراره، وإعلامه حتى حفظ الله بهم الدين.

(٣) رواه مسلم (٤٧٦)، وأبو داود (٨٤٦)، والترمذي (٣٥٤١).

يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرفْ عني سيءِ الأخلاق لا يصرف عني سيئَها إلا أنت)[1].

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: أنه كان يقول في سجوده:

(اللهم اغفرْ لي ذنبي كلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، علانيته وسره، أوله وآخره)[2].

وفي السنن عن «علي» أن النبي ﷺ أتى بدابة ليركبها وأنه حمد الله وقال:

﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾[3].

ثم كبره وحمده ثم قال:

(سبحانَكَ ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت).

ثم ضحك وقال:

(إنَّ الربَّ يعجبُ من عبده إذا قال: اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يقول: علم عبدي أنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنا)[4].

بعض تأويلات الجهمية والباطنية:

من تأويلات الجهمية والباطنية في قوله تعالى:

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[5].

المتقدم: ذنب آدم.

المتأخر: ذنب أمته.

وهذا تأويل فاسد من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وبطلان ذلك على وجوه:

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، والنسائي (٢/١٢٩)، والبغوي في شرح السنة (٥٧٢). ووردت أحاديث كثيرة في الأقوال التي كان يقولها عليه الصلاة والسلام في الاستفتاح، ذكرت مفصلة في كتب الفقه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٣.

(٤) رواه الترمذي (٣٤٤٣)، وأبو داود (٢٦٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٣٨١).

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢.

١ ـ أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض، فضلاً عن عام الحديبية الذي أنزل الله فيه هذه السورة.

قال تعالى:

﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه فتاب عليه وهدى﴾(١).

وقال:

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾(٢).

وقد ذكر أنه قال:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾(٣).

٢ ـ أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع، ولا يحتاج أن يُغفر له ذنبه عن المنازع فإنه نبيٌّ أيضاً ومن قال:

إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب، يقول ذلك عن آدم ومحمدٌ وغيرهما.

٣ ـ أن الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله:

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾(٤).

فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم (عليه السلام) أو أمته أو غيرهما، وقد قال الله تعالى:

﴿فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم﴾(٥).

وقال تعالى:

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾(٦).

ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال إن قوله:

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٥) سورة النور، الآية: ٥٤.
(٦) سورة النساء، الآية: ٨٤.

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[1].

المراد: ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم وهو سيد ولد آدم.

وقال: (أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرِ، وَآدَمُ فَمَنْ دونَهُ تحت لوائي يوم القيامة، أنا خطيبُ الأنبياء إذا وَفدوا، وإمامُهم إذا اجتمعوا)[2].

وحينئذٍ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد ﷺ، بل يجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوباً له، فإن قال: إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم قيل: وهو أيضاً لم يغفر ذنوب جميع أمته.

٤ - إنه قد ميز بين ذنبه وذنوب أمته بقوله:
﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[3].

فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له؟؟!.

٥ - إنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة: (يا رسول الله، هذا لك، فما لنا؟؟)[4].

فأنزل الله:
﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾[5].

فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله تعالى:
﴿ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[6].

مختص به دون أمته.

٦ - إن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته، بل قد ثبت أن من أمته مَنْ يعاقب

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.
(٢) رواه بألفاظ قريبة الترمذي (٣٦١٨) و(٣٦١٤) و(٣٦١٧) و(٣١٤٧) والبغوي في شرح السنة (٣٦٢٤).
(٣) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٤) رواه البخاري (٣٤٧/٧)، ومسلم (١٧٨٦)، والترمذي (٣٢٥٩).
(٥) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٦) سورة الفتح، الآية: ٢.

بذنوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وهذا مما تواتر به النقل، وأخبر به الصادق المصدوق، واتفق عليه سلف الأمة، وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وقد قال تعالى:

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزَ به﴾[1].

والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل، فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على الذنب.

هل الاعتراف بالخطيئة يوجب المغفرة:

وهل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها، أم يحتاج إلى شيء آخر؟؟.

الجواب:

إن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها، فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة كما قال تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[2].

في موضعين من القرآن، وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفور، وبدون التوبة معلق بالمشيئة كما قال تعالى:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[3].

هذا في حق التائبين، ولهذا عم، وأطلق، وحتم أنه يغفر الذنوب جميعاً وقال في تلك الآية:

﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٢.

فحض ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة، فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة، وأما ما دونه فيغفر الله للتائب وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء، فالاعتراف بـالخطيئـة مع التوحيد إن كان متضمناً للتوبة أوجب المغفرة، وإذا غُفر الـذنب زالت عقوبتـه، فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب.

وأمـا إذا ابتلي مع ذلـك بما يكـون سبباً في حقـه لزيـادة أجره فهـذا لا ينافي المغفرة.

الاعتراف بالذنب دون الإقلاع عنه:

والاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقـلاع عنه، فهـذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر لـه الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع بـالمغفرة فـإنه داع دعـوة مجردة.

وقد ثبت في الصحيحين:

(ما من داعٍ يدعـو بدعـوةٍ ليسَ فيها إثمٌ ولا قـطيعةُ رحمٍ إلا كـان بين إحدى ثلاث:

إما أن يعجَّل له دعوتُه.
وإما أن يدَّخر له من الجزاء مثلُها.
وإما أن يُصرف عنه من الشر مثلها.

قالوا: يا رسول الله: إذاً يكثُرُ، قال: اللّهُ أكثر)[1].

فمثل هذا الدعاء قـد تحصل معـه مغفرة، وإذا لم تحصـل فلا بـد أن يحصل معه صرف شيء آخر، أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٨) و(٣٥٦٨)، والحاكم في المستدرك(١/٤٩٣)، وأحمد في المسند (٣/١٨)، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٧).

قول بعضهم: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين:

وقول من قال من العلماء:
[الاستغفارُ مع الإصرار توبةُ الكذابين].

فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان؛ الإصرار يضاد التوبة لكن لا يضاد الاستغفار بدون توبة.

التوبة من بعض الذنوب دون بعض:

التوبة من بعض الذنوب دون بعض، كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المعقول، كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال. كما قال تعالى:

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[3].

إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض، فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما علمتُ في هذا نزاعاً إلا الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر، فيُغفر له بالإسلام الكفرُ الذي تاب منه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟

هذا فيه قولان معروفان:

الأول:

يغفر له الجميع.

لقوله ﷺ:

(الإسلامُ يهدمُ ما كان قبله)[1].

وفي رواية:

(يجبُّ ما كان قبلَهُ)[2].

فهذا قاله لما أسلم «عمرو بن العاص» وطلب أن يُغفر له ما تقدم من ذنبه فقال:

(يا عمرو: أما علمت أنَّ الإسلامَ يهدمُ ما كان قبله)[3].

والقول الثاني:

إنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصرٌّ على كبائر دون الكفر، فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر.

وفي الصحيحين: قال «حكيم بن حزام»[4]:

يا رسول الله: أنؤاخَذُ بما عملنا في الجاهلية.

فقال: (من أحسنَ منكُم في الإسلامِ لم يؤاخَذ بما عملَ في الجاهلية، ومن أساءَ في الإسلام أُخذ بالأول والآخر)[5].

فقد دل هذا النص على أنه إنما تُرفع المؤاخذة بالأعمال التي فُعلت في حال الجاهلية عمن أحسن، لا عمن يحسن، وإن لم يحسن أُخذ بالأول والآخر، ومن

---

(١) و (٢) و (٣) سبق تخريجها.

(٤) حكيم بن حزام: صحابي وهو ابن أخي أم المؤمنين خديجة. ولد في الكعبة وعمر طويلاً (١٢٠ سنة) كان صديقاً للنبي قبل البعثة وبعدها. وكان من سادات قريش. أسلم يوم الفتح. توفي بالمدينة المنورة عام (٥٤ هـ).

(٥) رواه البخاري (١٢/٢٣٥)، ومسلم (١٢٠).

لم يتب منها لم يحسن وقوله تعالى:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾[1].

وقد يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره وإنما منه، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها. إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر منها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً، لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندماً عاماً على كل محظور.

من تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب، إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، قبل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة.

وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه، فإن التوبة العامة شاملة.

وأما التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله، كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سبباً لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سبباً لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولاً عاماً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

شرح حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

سئل شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية عن معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

يا عبادي: إنّي حرمتُ الظّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكُمْ محرّماً فلا تظالموا.

يا عبادي: كلُّكم ضالٌّ إلا مَنْ هديتُهُ فاستهدوني أهدكمْ.

يا عبادي: كلُّكم جائعٌ إلا مَنْ أطعمتُهُ فاستطعموني أطعمْكم.

يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي: إنكم تخطئون بالليلِ والنهار وأنا أغفرُ الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولَنْ تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي: لو أن أولّكم وآخَرَكُمْ وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً.

يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجل واحد مِنكم ما نقصَ ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم فسألتَهُ مَا نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المخيط إذا أُدْخِلَ البحرَ.

يا عبادي: إنما هي أعمالُكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها، فمن وَجَدَ خيراً فليحمدِ الله عز وجل، ومَنْ وجدَ غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٧).

الله حرم الظلم على نفسه:

فأجاب رضي الله عنه:
الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما قوله تعالى:
(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي)
ففيه مسألتان كبيرتان، كل منهما ذات شعب وفروع.
إحداهما: في الظلم الذي حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله:
﴿وما ظلمناهم﴾[1].

وقوله:
﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾[2].

وقوله:
﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[3].

وقوله:
﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾[4].

وقوله:
﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾[5].

ونفى إرادته بقوله:
﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾[6].

وقوله:
﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[7].

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٠٨.
(٧) سورة غافر، الآية: ٣١

ونفى خوف العباد له بقوله:

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾[1].

فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعاً صاروا فيه بين طرفين متباعدين، ووسط بينهما، وخيار الأمور أوسطها.

وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع، إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلالة عامة الأمم، ولهذا نهى النبي ﷺ أصحابه عن التنازع فيه.

فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد، ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلى أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض، وشبهوه ومثّلوه في الأفعال بأفعال العباد، حتى كانوا هم ممثلة الأفعال، وضربوا لله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى، بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد، ويحرم بقياسه على العباد، وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا:

[إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالماً له].

والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالاً، كما قالوا إنه لا يقدر أن يضل مهتدياً، وقالوا عن هذا:

[إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالماً].

إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلماً، وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدراً ظلم له، ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم، وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامة أو خاصة.

وهذا الموضع زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا:

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها، بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها، فلا يجوز أن يكون مقدوراً، ولا أن يقال إنه هو تارك له باختياره ومشيئته وإنما هو من باب الجمع بين الضدين.

وجعل الجسم الواحد في مكانين، وقلب القديم محدثاً، والمحدث قديماً، وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكناً والله قادر عليه فليس بظلم منه، سواء فعله أو لم يفعله.

مناظرة لطيفة:

وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث، من أصحاب «مالك»[1] و«الشافعي»[2] و«أحمد»[3] وغيرهم، ومن شراح الحديث ونحوهم، وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول وربما تعلقوا بظاهر من أقوال مأثورة، كما روينا عن «إياس بن معاوية»[4] أنه قال:

[ما نظرت بعقلي كله أحداً إلا «القدرية»[5] قلت لهم: ما الظلم؟ قالوا: أن تأخذ ما ليس لك، أو أن تتصرف فيما ليس لك، قلت: فلله كل شيء].

---

(١) مالك بن أنس: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، ولد بالمدينة المنورة عام (٩٣ هـ) كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء، طلب منه المنصور أن يضع كتاباً للناس فصنف «الموطأ». ولشدة مواقفه أوذي وضُرب حتى خلعت كتفه. توفي عام (١٧٩ هـ).

(٢) الشافعي: محمد بن إدريس الهاشمي القرشي، أحد الأئمة الأربعة، ولد في غزة (١٥٠ هـ)، تعلم العلوم العربية والفقه والقراءات، أفتى وهو ابن عشرين سنة، كان ذكياً مفرطاً، له تصانيف كثيرة منها: «الأم»، «المسند»، «أحكام القرآن»، «السنن»، «الرسالة». . . ، قال عنه ابن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورقة إلا وللشافعي في رقبته منة. توفي (١٩٩ هـ).

(٣) أحمد بن حنبل: أحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، ولد عام (١٦٤ هـ) ببغداد، انكب على العلم منذ الصغر، وسافر الكثير لطلبه، صنف المسند وجمع فيه ثلاثين ألف حديث، وله من الكتب «الناسخ والمنسوخ»، «المناسك»، «الزهد»، «العلل والرجال». عُذب وسجن في عهد المعتصم. توفي (٢٤١ هـ).

(٤) إياس بن معاوية: قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الذكاء والفطنة، ولد عام (٤٦ هـ) وقال عنه الجاحظ: إياس من مفاخر مضر، ومن مقدمي القضاء. توفي (١٢٢ هـ).

(٥) القَدَرية: جماعة من التابعين قالوا بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله، رددوا هذا في الشام والعراق، وكان على رأسهم معبد الجهني، وغيلان الدمشقي. وهي ضد الجبرية، مهدوا للمعتزلة وتلاشوا فيهم.

وليس هـذا من «إياس» إلا ليبين أن التصـرفات الـواقعـة هي في ملكـه، فـلا يكون ظلماً بموجب حدهم، وهذا مما لا نزاع بين أهل الإثبات فيه، فـإنهم متفقون مع الإيمان بالقدر على أن كل ما فعله الله فهو عدل.

وفي حديث الكرب الذي رواه الإمام «أحمد» عن «عبد الله بن مسعود» قال:

قال رسول الله ﷺ:

(ما أصاب عبداً قطُّ همٌّ ولا حزن فقال:

اللهمّ إني عبـدُك، ابن عبـدك، ابن أَمَتِـكَ، نـاصيتي بيـدك، مـاضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك سميت بـه نفسك، أو أنـزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقـك، أو استأثـرت به في علم الغيب عنـدك، أن تجعل القرآن ربيعَ قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي.

إلا أذهبَ اللّهُ همه وغمهُ، وأبدله مكانه فرحاً.

قالوا يا رسول الله أفلا نتعلّمهن.

قال: بلى، ينبغي لمن سمعهُنَّ أن يتعلمهن)[1].

فقد بين أن كل قضائه في عبده عدل.

ولهذا يقال [كل نعمةٍ منه فضلٌ، وكل نقمة منه عدل].

ويقـال [أطعتك بفضلك والمنـة لك، وعصيتـك بعلمك أو بعـدلك والحجـة لك، فأسألك بوجوب حجتك عليّ وانقطاع حجتي إلا ما غفرت لي].

وهـذه المنـاظـرة من «إيـاس» كمـا قـال «ربيعـة بن أبي عبـد الـرحمن»[2] «لغيلان»[3] حين قال له «غيلان»:

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/٣٩١)، والحاكم في المستدرك (١/٥٠٩)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد: ١٠/١٣٦) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني.

(٢) هو ربيعة بن فرّوخ، أبو عثمان، ويعرف بربيعة الـرأي. وهو إمـام حافظ فقيـه مجتهد، كـان بصيراً بالرأي، وكان من الأجواد، أنفق على إخوانه أربعين ألف دينار، كان صاحب الفتوى بالمدينة، وبه تفقه الإمام مالك بن أنس. (ت ١٣٦ هـ).

(٣) غيـلان بن مسلم الدمشقي، أبـو مـروان: كـاتب، من البلغـاء، تنسب إليـه فـرقـة «الغيـلانيـة» من القدرية، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، له عدة رسائل. ت (بعد ١٠٥ هـ).

[نشدتك الله أترى اللَهَ يحبُّ أن يعصى] فقال:
[نشدتك الله أترى الله يعصى قسراً، يعني قهراً].
فكأنما ألقمه حجراً.

فإن قوله: يحب أن يعصى لفظ فيه إجمال، وقد لا يتـأتى في المناظـرة تفسير المجملات خوفاً من لدد الخصم، فيؤتى بـالواضحـات، فقال [أفتـراه يعصى قسراً] فـإن هذا ألـزم له بـالعجز الـذي هو لازم للقـدرية ولمن هـو شر منهـم من الـدهريـة الفلاسفة وغيرهم.

وكـذلك «إيـاس» رأى أن هذا الجـواب المـطابق لحـدهم خـاصم لهم، ولم يدخل معهم في التفصيل الذي يطول.

وبالجملة فقوله تعالى:

﴿**ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً**﴾(١).

قال أهل التفسير من السلف:

[لا يخاف أن يُظلم فيحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم فينقص من حسناته] ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيء ممتنع غير مقدور عليـه، فيكون التقـدير: لا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات، فإن مثـل هذا إذا لمن يكن وجوده ممكناً حتى يقولوا إنه غير مقدور، ولو أراده كخلق المثل له فكيف يعقل وجوده فضلاً أن يتصور خوفـه حتى ينفي خوفـه؟؟ ثم أي فائـدة من نفي خوفـه هذا وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا العامل المحسن لا يجـزي على إحسانه بالظلم والهضم.

فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكـره أهل التفسيـر، ولهذا كـان الصواب الـذي دلت عليه النصـوص أن الله لا يعذب في الآخـرة إلا من أذنب كما قال:

﴿**لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾(٢).

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.
(٢) سورة ص، الآية: ٨٥

فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلىء منهم، ولهذا ثبت في الصحيحين في حديث تحاج الجنة والنار من حديث «أبي هريرة» و «أنس» أن النار تمتلىء ممن ألقي فيها حين ينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط، بعد قولها: هل من مزيد، وأما الجنة فيبقى فيها فضل عمن يدخلها من أهل الدنيا فينشىء الله لها خلقاً آخر.

ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ما صح به الحديث، وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين، فلا نحكم لكل منهم بالجنة، ولا لكل منهم بالنار، بل هم ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم، فهم إذا كلفوا يوم القيامة في العرصات[1] كما جاءت بذلك الآثار.

الله يجزي الإنسان حسب عمله:

كذلك قوله تعالى:

﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾[2].

يدل الكلام على أنه لا يظلم محسناً فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئاً فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله:

﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[3].

فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وكلا القولين حق على ظاهره.

وإن ظن بعض الناس أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك، إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره، ولكن الميت يناله ألم

(١) العرصات: جمع عَرْصَة: وهي ساحة الدار، والبقعة الواسعة التي ليس فيها بناء، وسميت كذلك لأن الصبيان يعترصون فيها أي يلعبون ويمرحون.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٨.

من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب. كما قال ﷺ:

(السفرُ قطعةٌ من العذاب)[1].

وكذلك ظن قوم انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[2].

فليس الأمر كذلك، فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية، ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد، بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة. وقد بينا في غير موضع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره، إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكه ومستحقه بما ينتفع به منه، فهذا نوع وهذا نوع.

وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة، فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية.

وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل في الجزاء وأنه لا يبخس عامل عمله.

وكذلك قوله فيمن عاقبهم:

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾[3].

وقوله:

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦/٣)، ومسلم (١٩٢٧)، ومالك في الموطأ (٩٨٠/٢) وعندهم زيادة (يمنع أحدكم نومه، وطعامه، وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته من وجهه، فليعجل إلى أهله).
ورواه أحمد في المسند (٢٣٦/٢ ـ ٤٤٥ ـ ٤٩٦)، والبيهقي في السنن (٢٥٩/٥) وفي الآداب (٨٢٠)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨٧).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠١.

﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾[1].

بين أن عقاب المجرمين عدلاً لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب. والحديث الذي في السنن:

لو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم.

يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك، لا لكونه بغير ذنب. وهذا يبين أن من الظلم المنفي عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى:

﴿وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد﴾[2].

يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً لاستحقاقهم ذلك، وأن الله لا يريد الظلم، والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته، وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادراً عليها، فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وبذلك يصح قوله:
(إني حرمت الظلم على نفسي)[3].

وأن التحريم هو المنع، وهذا لا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته، فلا يصلح أن يقال: حرمت على نفسي أو منعت نفسي من خلق مثلي، أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات.

وأكثر ما يقال في تأويل ذلك ما معناه: أني أخبرت عن نفسي بأن ما لا يكون مقدوراً لا يكون مني، وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن أنه ليس مراد الرب، وأنه يجب تنزيه الله ورسوله عن إرادة مثل هذا المعنى الذي لا يليق الخطاب بمثله، إذ هو مع كونه شبه التكرير وإيضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا ما يستفيده المستمع، فعلم أن الذي حرمه على نفسه هو أمر مقدور عليه، لكنه لا يفعله لأنه حرمه على نفسه، وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنه.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣١.

(٣) سبق تخريجه.

يبين ذلك أن ما قاله الناس حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم: [الظلم وضع الشيء في غير موضعه].

كقولهم [من أشبه أباه فما ظلم] أي فما وضع الشبه غير موضعه.

ومعلوم أن الله سبحانه حكم عدل لا يضع الأشياء إلا مواضعها، ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعاً لذاته، بل هو ممكن لكنه لا يفعله لأنه لا يريده، بل يكرهه ويبغضه إذ قد حرمه على نفسه.

وكذلك من قال الظلم إضرار غير مستحق فإن الله لا يعاقب أحداً بغير حق، وكذلك من قال هو نقص الحق وذكر أن أصله النقص. كقوله:
﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾[1].

وأما من قال التصرف في ملك الغير فهذا ليس بمطرد ولا منعكس، فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق ولا يكون ظالماً، وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظالماً. وظلم العبد نفسه كثير في القرآن.

وكذلك من قال فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك إن سلم صحة مثل هذا الكلام فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، فهو لا يفعل خلاف ما كتب، ولا يفعل ما حرم، وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الأمور التي نبهنا عليها فيه وإنما نشر إلى النكت.

القول السديد في نفي الظلم عن الله:

وبهذا يتبين القول المتوسط، وهو أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات ويعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب لقسطه وعدله وهو قادر عليها، وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه، وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً منزه عن أفعال النقص والعيب.

وعلى قول الفريق الثاني: ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلاً، والكتاب

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٣.

والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها يدل على خلاف ذلك.

ولكن متكلمو الإثبات لما ناظروا متكلمي النفي ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها إلا بمقابلة الباطل بالباطل، وهذا مما عابه الأئمة وذموه.

كما عاب «الأوزاعي»[1] و«الزبيدي»[2] و«الثوري»[3] و«أحمد بن حنبل» وغيرهم مقابلة القدرية بالغلو في الإثبات، وأمروا بالاعتصام بالكتاب والسنة، وكما عابوا أيضاً على من قابل «الجهمية»[4] نفات الصفات بالغلو في الإثبات حتى دخل في تمثيل الخالق بالمخلوق.

وقد بسطنا الكلام في هذا وهذا وذكرنا كلام السلف والأئمة في هذا في غير هذا الموضع، ولو قال قائل هذا مبني على مسألة تحسين العقل وتقبيحه، فمن قال: العقل يعلم به حسن الأفعال وقبحها، فإنه ينزه الرب عن بعض الأفعال، ومن قال: لا يعلم ذلك إلا بالسمع، فإنه يجوز جميع الأفعال لعدم النهي في حقه قيل له: ليس بناء هذا على تلك بلازم وبتقدير لزومها ففي تلك تفصيل وتحقيق قد بسطناه في موضعه.

وذلك أنا فرضنا أنا نعلم بالعقل حسن بعض تلك الأفعال وقبحها لكن العقل لا يقول إن الخالق كالمخلوق حتى يكون ما جعله حسناً لهذا أو قبيحاً له جعله حسناً للآخر وقبيحاً له، كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة.

وإن فرضنا أن حسن الأفعال وقبحها لا يُعلم إلا بالشرع، فالشرع قد دل على

---

(١) الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، له كتاب «السنن» في الفقه، و«المسائل» توفي (١٥٧ هـ).

(٢) الزبيدي: لم نستطع تحديده.

(٣) الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، وكان آية في الحفظ، من كتبه «الجامع الكبير»، «الجامع الصغير» وكتاب في «الفرائض» توفي (١٦١ هـ).

(٤) الجهمية: تنسب إلى جهم بن صفوان ت (٧٤٥ م) قالوا مع المرجئة بأن الإيمان محله القلب، ونفوا مع المعتزلة عن الله كل وصف يجوز إطلاقه على غيره كالوجود والحياة والعدم، وجوزوا وصفه فقط بما يختص به من صفات الأفعال كالخلق، وذهبوا إلى أن كلام الله حادث، ووافقوا الجبرية بقولهم إن أعمال الإنسان يخلقها الله.

أن الله قد نزه نفسه عن أفعال وأحكام، فلا يجوز أن يفعلها تارة بخبره مثنياً على نفسه بأنه لا يفعلها، وتارة يخبره أنه حرمها على نفسه وهذا يبين المسألة الثانية.

اختلاف الناس حول أفعال الله عز وجل:

فنقول: الناس لهم في أفعال الله باعتبار ما يصلح منه ويجوز وما لا يجوز منه ثلاثة أقوال: طرفان، ووسط:

فالطرف الواحد طرف القدرية: وهم الذين حجروا عليه أن يفعل إلا ما ظنوا بعقلهم أنه الجائز له، حتى وضعوا شريعة التعديل والتجويز، فأوجبوا عليه بعقلهم أموراً كثيرة، وحرموا عليه بعقلهم أموراً كثيرة، لا بمعنى أن العقل آمر له وناهٍ فإن هذا لا يقوله عاقل، بل بمعنى أن تلك الأفعال مما علم بالعقل وجوبها وتحريمها، ولكن أدخلوا في ذلك المنكرات ما بنوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر وتوابع ذلك.

والطرف الثاني: طرف الغلاة في الرد عليهم، وهم الذين قالوا: لا ينزه الرب عن فعل من الأفعال، ولا نعلم وجه امتناع الفعل منه إلا من جهة خبره أنه لا يفعله المطابق لعلمه بأنه لا يفعله، وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخبر به من أنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم.

قال الله تعالى:

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[1].

وفي الصحيحين عن «أبي هريرة» رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إنّ الله لما قضى الخلق كتبَ على نفسِهِ كتاباً فهو موضوع عنده فوقَ العرشِ أن رحمتي تغلبُ غضبي)[2].

ولم يعلم هؤلاء أن الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه، إذ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٢) رواه البخاري (١٣/٣٢٥)، ومسلم (٢٧٥١)، والترمذي (٣٥٣٧)، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (٧١).

العلم يطابق المعلوم فعله بأنه يفعل هذا ليس فيه تعرض لأنه كتب هذا على نفسه وحرم هذا على نفسه، كما لو أخبر عن كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيان لكونه محموداً ممدوحاً على فعل هذا وترك هذا، ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا.

فإن الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه، ليس فيه بيان ما يدعو إلى الفعل ولا إلى الترك.

بخلاف قوله: كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، فإن التحريم مانع من الفعل، وكتابته على نفسه داعية إلى الفعل، هذا بين واضح إذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل (وهو كتابة التقدير) كما قد ثبت في الصحيح أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء.

فإنه قال: كتب على نفسه الرحمة، ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب، كما كتب على نفسه الرحمة، إذا كان المراد مجرد الخبر عما سيكون، ولكان قد حرم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم، وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله:

﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾[1].

وبين قوله:

﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾[2].

وقوله:

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[3].

وقوله:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.
(٢) سورة القمر، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(فيبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد)[1].

فهكذا الفرق أيضاً ثابت في حق الله. ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى:

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[2].

وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

(يا مُعاذ[3]: أتدري ما حقُّ اللّهِ على عبادِهِ؟ قلت: اللّهُ ورسوله أعلم قال: حقُّهُ عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: اللّهُ ورسولُه أعلم قال: حقهم عليه ألا يعذبهم)[4].

ومنه قوله في غير حديث:

(كان حقاً على اللّهِ أن يفعلَ به كذا)[5].

فهذا الحق الذي عليه هو أحقَّه على نفسه بقوله، ونظيره تحريمه على نفسه، وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمِهِ ليفعلنّ وكلمته السابقة.

كقوله:

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾[6].

وقوله:

﴿لأملأن جهنم﴾[7].

﴿ولنهلكن الظالمين﴾[8].

---

(١) رواه البخاري (١١/٤١٧)، ومسلم (٢٦٤٣)، والترمذي (٢١٣٨)، وأبو داود (٤٧٠٨).

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) هو الصحابي الجليل معاذ بن جبل.

(٤) و (٥) رواه البخاري (١٣/٣٠٠)، ومسلم (٣٠) والترمذي (٢٦٤٥) وهو جزء من حديث أوله قول معاذ:

(كنت رِدْف النبي ﷺ، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرَّحل (أي الخشبة التي في آخره)، قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك...)، ثم ذكر الحديث.

(٦) سورة يونس، الآية: ١٤.

(٧) سورة ص، الآية: ٨٥.

(٨) سورة إبراهيم، الآية: ١٣.

﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذو في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[1].

ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض.

ولهذا قال الفقهاء:

[اليمين إما أن توجب حقاً، أو منعاً، أو تصديقاً، أو تكذيباً].

وإذا كان معقولاً في الإنسان أنه يكون آمراً مأموراً.

كقوله:

﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[2].

وقوله:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾[3].

مع أن العبد له آمر وناه فوقه، والرب الذي ليس فوقه أحد لأن يتصور أن يكون هو الآمر الكاتب على نفسه الرحمة والناهي المحرم على نفسه الظلم أولى وأحرى، وكتابته على نفسه ذلك تسلتزم إرادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك، وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له، وإرادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه وبغضه له وكراهته، لأن بفعله يمنع وقوعه منه.

فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرق بين فعله هو وبين ما هو مفعول مخلوق له، وليس في مخلوقه ما هو ظلم منه، وإن كان بالنسبة إلى فاعله الذي هو الإنسان هو ظلم، كما أن أفعال الإنسان هي بالنسبة إليه تكون سرقة وزنا وصلاة وصوماً والله خالقها بمشيئته، وليست بالنسبة إليه كذلك، إذ هذه الأحكام هي للفاعل الذي قام به هذا الفعل، كما أن الصفات هي صفات للموصوف الذي قامت به لا للخالق الذي خلقها وجعلها صفات.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

الله خالق كل الأفعال!! فكيف يخلق الظلم؟؟

والله تعالى خلق كل صانع وصنعته كما جاء في الحديث، وهو خالق كل موصوف وصفته، ثم صفات المخلوقات ليست صفات له كالألوان والطعم والروائح لعدم قيام ذلك به، وكذلك حركات المخلوقات ليست حركات له ولا أفعالاً له بهذا الاعتبار لكونها مفعولات هو خلقها، وبهذا الفرق تزول شبه كثيرة.

والأمر الذي كتبه على نفسه يستحق عليه الحمد والثناء وهو مقدس عن ترك هذا الذي لو ترك لكان تركه نقصاً.

وكذلك الأمر الذي حرمه على نفسه يستحق الحمد والثناء على تركه وهو مقدس عن فعله الذي لو كان لأوجب نقصاً.

وهذا كله بين ولله الحمد عند الذين أوتو العلم والإيمان، وهو أيضاً مستقر في قلوب عموم المؤمنين، ولكن القدرية شبهوا على الناس بشبههم فقابلهم من قابلهم بنوع من الباطل كالكلام الذي كان السلف والأئمة يذمونه وذلك أن المعتزلة قالوا:

[قد حصل الاتفاق على أن الله ليس بظالم كما دل عليه الكتاب والسنة].

والظالم مَنْ فعل الظلم، كما أن العادل من فعل العدل، هذا هو المعروف عند الناس من مسمى هذا الاسم سمعاً وعقلاً قالوا:

[ولو كان الله خالقاً لأفعال العباد التي هي الظلم لكان ظالماً].

فعارضهم هؤلاء بأن قالوا:

[ليس الظلم من فعل الظلم، بل الظلم من قام به].

وقال بعضهم:

[الظالم من اكتسبَ الظلْمَ وكان منهياً عنه].

وقال بعضهم:

[الظلم مَنْ فَعَلَ محرماً عليه، أو ما نهي عنه].

ومنهم من قال:

[مَنْ فَعَلَ الظلم].

وهؤلاء يعنون أن يكون الناهي له والمحرم عليه غيره الذي يجب عليه طاعته ولهذا كان تصور الظلم منه ممتنعاً عندهم لذاته، كامتناع أن يكون فوقه آمر له وناه ويمتنع عند الطائفتين أن يعود إلى الرب من أفعاله حكم لنفسه، وهؤلاء لم يمكنهم أن ينازعوا أولئك في أن العادل من فعل العدل بل سلموا ذلك لهم، وإن نازعهم بعض الناس منازعة عنادية.

والذي يكشف تلبيس المعتزلة أن يقال لهم: الظالم والعادل الذي يعرفه الناس وإن كان فاعلاً للظلم والعدل، فذلك يأثم به أيضاً ولا يعرف الناس من يسمى ظالماً ولم يقم به الفعل الذي صار به ظالماً.

بل لا يعرفون ظالماً إلا من قام به الفعل الذي فعله وبه صار ظالماً، وإن كان فعله متعلقاً بغيره، وله مفعول منفصل عنه، لكن لا يعرفون الظالم إلا أن يكون قد قام به ذلك، فكونكم أخذتم في حد الظلم أنه من فعل الظلم وعينتم بذلك من فعله في غيره، فهذا تلبيس وإفساد للشرع والعقل واللغة كما فعلتم في مسمى المتكلم، حيث قلتم: هو من فعل الكلام ولو في غيره، وجعلتم من أحدث كلاماً منفصلاً عنه قائماً بغيره متكلماً وإن لم يقم به هو كلام أصلاً، وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة، ولهذا ألزمهم السلف أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات، وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات.

ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق وإنما قالت الجلود:
أنطقها الله الذي أنطق كل شيء.
ولم تقل نطق الله بذلك.

ولهذا قال من قال من السلف «كسليمان بن داود الهاشمي»[1] وغيره ما معناه: أنه على هذا يكون الكلام الذي خلق في «فرعون» حتى قال أنا ربكم الأعلى، كالكلام الذي خلق في الشجرة حتى قالت:
إنني أنا الله لا إله إلا أنا.

فإما أن يكون «فرعون» محقاً، أو تكون الشجرة «كفرعون»، وإلى هذا المعنى

---

(١) سليمان بن داود الهاشمي، أبو أيوب العباسي: من كبار الأئمة، وكان من عقلاء الرجال، قال عنه أحمد بن حنبل: كان يصلح للخلافة. توفي (٢١٩ هـ).

ينحو الاتحادية من «الجهمية» وينشدون.

وكل كلامٍ في الوجودِ كلامُهُ سواءً علينا نثره ونظامهُ.

وهذا يستوعب أنواع الكفر ولهذا كان من الأمر البين للخاصة والعامة أن من قال: المتكلم لا يقوم به كلام أصلاً، فإن حقيقة قوله، إنه ليس بمتكلم، إذ ليس المتكلم إلا هذا. ولهذا كان أولوهم يقولون: ليس بمتكلم، ثم قالوا: هو متكلم بطريق المجاز، وذلك لما استقر في الفِطَرِ أن المتكلم لا بد أن يقوم به كلام وإن كان مع ذلك فاعلاً له كما يقوم بالإنسان كلامه وهو كاسب له.

أما أن يجعل مجرد إحداث الكلام في غيره كلاماً له فهذا هو الباطل، وهكذا القول في الظلم. فهب أن الظالم من فعل الظلم، فليس هو من فعله في غيره ولم يقم به فعل أصلاً، بل لا بد أن يكون قد قام به فعل وإن كان متعدياً إلى غيره فهذا جواب.

ثم يُقال لهم: الظلم فيه نسبة وإضافة، فهو ظلم من الظالم بمعنى انه عدوان وبغي منه، وهو ظلم للمظلوم بمعنى أنه بُغي واعتُدي عليه، وأما من لم يكن مُتعدى عليه به ولا هو منه عدوان على غيره فهو في حقه ليس بظلم لا منه ولا له.

والله سبحانه وتعالى إذا خلق أفعال العباد فذلك من جنس خلقه لصفاتهم، فهم الموصوفون بذلك فهو سبحانه إذا جعل بعض الأشياء أسود، وبعضها أبيض، أو طويلاً، أو قصيراً، أو متحركاً، أو ساكناً، أو عالماً، أو جاهلاً، أو قادراً، أو عاجزاً، أو حياً، أو ميتاً، أو مؤمناً، أو كافراً، أو سعيداً، أو شقياً، أو ظالماً، أو مظلوماً، كان ذلك المخلوق هو الموصوف بأنه الأبيض، والأسود، والطويل، والقصير، والحي، والميت، والظالم، والمظلوم، ونحو ذلك. والله سبحانه لا يوصف بشيء من ذلك وإنما إحداثه للفعل هو ظلم من شخص وظلم لآخر بمنزلة إحداثه الأكل والشرب الذي هو أكل من شخص وأكل لآخر، وليس هو بذلك أكلاً ولا مأكولاً ونظائر هذا كثيرة.

وإن كان في خلق أفعال العباد لازمها أو متعديها حكم بالغة، كما له حكمة بالغة في خلق صفاتهم وسائر المخلوقات، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك وقد ظهر بهذين الوجهين تدليس «القدرية».

وأما تلك الحدود التي عورضوا بها فهي دعاوٍ ومخالفة أيضاً للمعلوم من

الشرع واللغة والعقل، أو مشتملة على نوع من الإجمال، فإن قـول القائـل: الظالم من قام به الظلم، يقتضي أنه لا بد أن يقوم به، لكن يقال لـه وإن لم يكن فاعـلاً له آمراً له: لا بد أن يكون فاعلاً له مع ذلك، فإن أراد الأول كان اقتصاره على تفسير الظلم كاقتصار أولئك على تفسير الظالم في فعل الظلم.

والذي يعرفه الناس عامهم وخاصهم أن الظالم فاعل للظلم، وظلمه فعل قائم به، وكل من الفريقين جحد بعض الحق، وأما قولهم من فعل محرمـاً عليه أو منهيـاً عنه ونحو ذلـك فالإطـلاق صحيح، لكن يقـال: قد دل الكتـاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة، وكان حقاً عليـه نصر المؤمنين، وكـان حقاً عليـه أن يجزي المطيعين، وأنه حرم الـظلم على نفسه فهـو سبحانـه الذي حـرم بنفسه على نفسه الظلم، كما أنه هو الذي كتب بنفسـه على نفسه الـرحمة، لا يمكن أن يكـون غيره محرمـاً عليه أو مـوجباً عليـه فضلاً عن أن يعلم ذلـك بعقل أو غيـره، وإذا كان كذلك فهذا الظلم الذي حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب، وهو أمر ممكن مقـدور عليه، وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره، لأنه عادل ليس بظالم كما يترك عقوبة الأنبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البريء ذنوب المعتدين.

من عدل الله تعالى أنْ حرّم الظلم:

قوله:

(وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[1].

ينبغي أن يعرف أن هذا الحـديث شريف القـدر، عظيم المنـزلة، ولهـذا كان الإمام أحمد» يقول:

[هو أشرف حديث لأهل الشام].

وكان أبو إدريس الخولاني[2] إذا حدث به جثا على ركبتيه.

ورواية «أبي ذر» (ما أظـلت الخضراءُ ولا أقلّتْ الغبراءُ أصـدقَ لهجةً منـه)[3]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أبو إدريس الخولاني: عائذ الله بن عبد الله بن عمرو الخولاني الدمشقي، تابعي فقيه، كـان واعظ أهل دمشق وقاصّهم في خلافة عبد الملك هو الذي ولاه القضاء في دمشق. توفي (٨٠ هـ).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٠٨) و(٣٨٠٤).

وهو من الأحاديث الإلهية التي رواها الرسول ﷺ عن ربه، وأخبر أنها من كلام الله تعالى وإن لم تكن قرآناً.

وقد جمع في هذا الباب «زاهر الشحّامي»[1]، و «عبد الغني المقدسي»[2] و «أبو عبد الله المقدسي»[3] وغيرهم.

وهذا الحديث قد تضمن من قواعد الدين العظيمة في العلوم والأعمال والأصول والفروع فإن تلك الجملة الأولى وهي قوله ﷺ:
(حرمت الظلم على نفسي).

يتضمن جل مسائل الصفات والقدر إذا أعطيت حقها من التفسير، وإنما ذكرنا فيها ما لا بد منه من التنبيه عليه من أوائل النكت الجامعة. وأما هذه الجملة الثانية وهي قوله ﷺ:

(وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[4].

فإنها تجمع الدين كله فإن ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم، وكل ما أمر به راجع إلى العدل ولهذا قال تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾[5].

فأخبر أنه أرسل الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط وذكر

= الخضراء: السماء، والغَبراء: الأرض.

(١) زاهر الشّحامي: هو زاهر بن طاهر بن محمد النيسابوري: مسنِد خراسان ومحدثها، كان ذا حب للرواية، وروى الكثير، وخرج، وجمع، وانتقى لنفسه «السباعيات» و «السداسيات» توفي (٥٣٣ هـ).

(٢) عبد الغني المقدسي بن عبد الواحد، أبو محمد: حافظ للحديث، ومن العلماء برجاله، انتقل صغيراً إلى دمشق، رحل إلى بلاد كثيرة. من مؤلفاته «الكمال في أسماء الرجال»، «الدرة المضية في السيرة النبوية»، «عمدة الأحكام من كلام خير الأنام» توفي (٦٠٠ هـ).

(٣) أبو عبد الله المقدسي: محمد بن عبد الواحد، المقدسي الأصل، ضياء الدين: عالم بالحديث، مؤرخ، من أهل دمشق، مولداً ووفاة، من كتبه «الأحكام»، «فضائل الأعمال». توفي (٦٤٣ هـ).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق فالكتاب يهدي والسيف ينصر ﴿**وكفى بربك هادياً ونصيرا**﴾[1].

ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد كما قال من قال من السلف صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء.

وقالوا في قوله تعالى:

﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[2].

أقوالاً تجمع العلماء والأمراء، ولهذا نص الإمام «أحمد» وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية، إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله.

وكان نواب رسول الله ﷺ في حياته «كعلي» و«معاذ» و«أبي موسى»[3] و«عتاب بن أسيد»[4] و«عثمان بن أبي العاص»[5] وأمثالهم يجمعون الصنفين، وكذلك خلفاؤه من بعد «كأبي بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» ونوابهم.

ولهذا كانت السنة أن الذي يصلي بالناس هو صاحب الكتاب، والذي يقوم بالجهاد هو صاحب الحديد. إلى أن تفرق الأمر بعد ذلك، فإذا تفرق صار كل من قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفجار يجب أن يطاع فيما أمر به من طاعة الله في ذلك، وكذلك من قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يصدق ويطاع فيما أخبر به من الصدق في ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله في ذلك.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) عتاب بن أسيد، أبو عبد الرحمن، والٍ أموي قرشي مكي، من الصحابة، كان شجاعاً عاقلاً، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبي ﷺ عليها عند مخرجه إلى حنين، وكان عمره (٢١ سنة)، وأقره أبو بكر، فاستمر فيها إلى أن مات يوم مات أبو بكر، توفي حوالي (٢٣ هـ).

(٥) عثمان بن أبي العاص: من ثقيف، صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبي ﷺ على الطائف، فبقي إلى عمله إلى أيام عمر، وكتب له أن يستخلف على الطائف، من أحب، له فتوح وغزوات بالهند وفارس، وفي البصرة موضع يقال له «شط عثمان» منسوب إليه، وهو الذي منع ثقيفاً عن الردة. توفي (٥١ هـ).

والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناس بـالقسط، ولهذا لمـا كان المشركون يحرمون أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ويأمرون بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان أنزل الله في سورة «الأنعام» و «الأعراف» وغيرهما يذمهم على ذلك، وذكر ما أمر به هو وما حرمه هو فقال:

﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعـوه مخلصين له الدين﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[2].

وهذه الآية تجمع أنواع المحرمات كما قد بينـاه في غير هـذا الموضـع وتلك الآية تجمع أنواع المحرمات كما قـد بيناه في غيـر هذا المـوضع وتلك الآيـة تجمع أنواع الواجبات كما بيناه أيضاً.

وقوله:

﴿أمـر ربي بالقسط وأقيمـوا وجوهكم عنـد كل مسجـد وادعوه مخلصين لـه الدين﴾[3].

أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحـده لا شريـك له، وهـذا أصل الدين، وضده هو الذنب الذي لا يغفر.

قال تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[4].

وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم.

قال الله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٨.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1].

وقال تعالى:

﴿واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[3].

وقال تعالى:

﴿شرع لكم في الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[4].

وقال تعالى:

﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[5].

ولهذا ترجم «البخاري»[6] في صحيحه باب ما جاء في أن دين الأنبياء واحد، وذكر الحديث الصحيح في ذلك وهو الإسلام العام الذي اتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام:

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[7].

وقال تعالى في قصة أبراهيم:

---

(١) الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٦) الإمام البخاري: هو محمد بن إسماعيل صاحب الجامع الصحيح.
(٧) سورة النمل، الآية: ٩١.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[1].

وقال موسى عليه السلام:

﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾[2].

وقال تعالى:

﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾[3].

وقال في قصة «بلقيس»[4].

﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[5].

وقال:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾[6].

وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجا في الصحيحين:

عن «عبد الله بن مسعود» قال:

لما نزلت هذه الآية:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾[7].

شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٤) بلقيس: ملكة في اليمن. ورد ذكرها في كتاب الله عز وجل وقصتها مشهورة مع سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد... ثم تزوجها النبي سليمان عليه السلام...
(٥) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

أيُّنا لم يظلمْ نفسه؟ فقال: (ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح[1]، ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[2])[3] وفي الصحيحين:

عن «ابن مسعود» قال:

«قلت يا رسول الله: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أنْ تجعلَ لله نِداً، وهو خلَقَك، قلتُ: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتُلَ ولَدَكَ خشية أن يطعمَ مَعك، قلت: ثم أي؟ قال أن تزنيَ بحليلةِ جارِك)[4].

فأنزل الله تصديق ذلك:

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾[5] الآية.

أنواع الظلم:

وقد جاء عن غير واحد من السلف وروي مرفوعاً:

(الظلمُ ثلاثةُ دواوين؛ فديوانٌ لا يغفرُ اللّهُ منه شيئاً، وديوانٌ لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً).

فأما الديوان الذي لايغفر الله منه شيئاً فهو الشرك، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فهو ظلم العباد بعضهم بعضاً، فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فهو ظلم العبد نفسيه فيما بينه وبين ربه[6].

---

(١) العبد الصالح: هو لقمان عليه السلام.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) رواه البخاري (١/٨١)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٩)، وأحمد في المسند (١/٤٢٤).

(٤) رواه البخاري (٨/٣٧٨)، ومسلم (٨٦)، وأبو داود (٢٣١٠)، والترمذي (٣١٨١). وحليلة: زوجة.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

(٦) رواه أحمد في المسند (٦/٢٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/٥٧٥)، والطيالسي في مسنده (٢٨٢)، والبزار في كشف الأستار (٣٤٣٩)، والطبراني (مجمع الزوائد: ١٠/٣٤٨).

أي مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق، فإن شاء عذب هذا لظلم نفسه وإن شاء غفر له.

وقد بسطنا الكلام في هذه الأبواب الشريفة، والأصول الجامعة في القواعد، وبينا أنواع الظلم، وبينا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم، وبينا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم، ومسمى الشرك جليلة ودقيقة، فقد جاء في الحديث الشريف:

(الشركُ في هذهِ الأمةِ أخفى من دبيبِ النمل)[1].

ورُوي أن هذه الآية نزلت في أهل الرياء:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[2].

وكان «شداد بن أوس»[3] يقول:

(يا نعايا العرب، يا نعايا العرب، إنما أخافُ عليكُم الرياءَ والشهوة الخفية)[4]. قال «أبو داود السجستاني»[5] صاحب السنن:
[الشهوة الخفية: حب الرياسة].

وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغي والظلم، كما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك، والشرك أعظم من الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[6].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٢٩١) وأبو يعلى في مسنده (١/٥٨ - ٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٦ - ١١٤).
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٣) شداد بن أوس، أبو يعلى: صحابي، من الأمراء، ولاه عمر إمارة حمص، ولما قُتل عثمان اعتزل، وعكف على العبادة، كان فصيحاً حكيماً حليماً. توفي (٥٨ هـ).
(٤) رواه الطبراني (مجمع الزوائد: ٦/٢٥٥).
(٥) أبو داود السجستاني: صاحب كتاب السنن المعروف بسنن أبي داود.
(٦) سورة القصص، الآية: ٤.

إلى أن ختم السورة بقوله:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾[1].

وقال:

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾[2].

وقال:

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً﴾[3].

وقالت الملائكة:

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾[4].

فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر كما قال عن المنافقين:

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[5].

وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه.

ولهذا يقول الفقهاء:

[العقد الصحيح: ما ترتب عليه أثره، وحصل به مقصوده، والفاسد: ما لم يترتب عليه أثره، ولم يحصل به مقصوده].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١١.

والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح، وكان يكثر في كلام السلف: هذا لا يصلح، أو يصلح، كما كثر في كلام المتأخرين: يصح، ولا يصح.

والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

(ألا إنّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح لها سائر الجسدِ، وإذا فَسَدَتْ فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب)[1].

وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وفساده في ضد ذلك، فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط.

والقلب له قوتان: العلم، والقصد، كما أن للبدن: الحس والحركة الإرادية، فكما إذا خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطري الطبيعي فسدت، فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التي يولد عليها كل مولود وهي أن يكون مقرباً لربه مريداً له فيكون هو منتهى قصده وإرادته، وتلك هي العبادة، إذ العبادة كمال الحب بكمال الذل، فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وإرادته لله تعالى كان فاسداً، إما بأن يكون معرضاً عن الله وعن ذكره، غافلاً عن ذلك مع تكذيب، أو بدون تكذيب، أو بأن يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وإرادته غيره لكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب إلى إرادة الله ومحبته وعبادته وإلا فمتى قوى علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه.

قال تعالى:

﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾[2].

فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضاً عن ذكر الله، ولم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا، وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه، ولم يُنب إليه، فيريد وجهه ويخلص له الدين.

---

(١) رواه البخاري (١٠/١١٧)، ومسلم (١٥٩٩)، وأبو داود (٣٣٢٩)، والترمذي (١٢٠٥)، والبيهقي في الآداب (١٠٠٨).

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٩.

ثم قال:

﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[1].

فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا، فهي أكبر همِّهم، ومبلغُ علمهم.

وأما المؤمن فأكبر همه هو الله، وإليه انتهى علمه وذكره، وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه.

التوحيد من القسط، والشرك من الظلم:

وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس، والإشراك أصل فسادهم، والقسط مقرون بالتوحيد، إذ التوحيد أصل العدل، وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم، فهذا مع هذا وهذا كالملزوزين[2] في قَرَن.

فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل، ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات، وهو البرّ، وهو العدل، والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده وهي فساد وظلم، ولهذا سمي قطّاع الطريق مفسدين، وكانت عقوبتهم حقاً لله تعالى لاجتماع الوصفين.

والذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له، باغٍ، إذ ليس كونك عالياً عليه بأولى من كونه عالياً عليك، وكلاكما من جنس واحد.

فالقسط والعدل أن يكونوا إخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك، والتوحيد ـ وإن كان أصل الصلاح ـ فهو أعظم العدل ولهذا قال تعالى:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[3].

ولهذا كان تخصيصه بالذكر في مثل قوله:

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٩.

(٢) أي كالشيئين الملتصقين ببعضهما.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾[1].

لا يمنع أن يكون داخلاً في القسط، كما أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان لا يمنع أن يكون داخلاً في الإيمان كما في قوله تعالى:

﴿وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿من النبيين ميثاقهم ومنك﴾[3].

هذا إذا قيل إن اسم الإيمان يتناوله، سواء قيل: إنه في مثل هذا يكون داخلاً في الأول، فيكون مذكوراً مرتين. أو قيل: بل عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا، وإن كان داخلاً فيه منفرداً، كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين، وأمثال ذلك، مما تنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

لكن المقصود: أن كل خير فهو داخل في القسط والعدل، وكل شر فهو داخل في الظلم، ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء، وعلى كل أحد. والظلمُ محرماً في كل شيء، ولكل أحد.

فلا يحل ظلم أحد أصلاً، سواء كان مسلماً، أو كافراً، أو كان ظالماً. بل الظلم إنما يُباح أو يجب فيه العدل عليه أيضاً.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن﴾[4].

أي يحملنكم شنآن أي بغض قوم ـ وهم الكفار ـ على عدم العدول.

﴿قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧.
(٤) و(٥) سورة المائدة، الآية: ٨.

وقال تعالى:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وجزآؤا سيئة سيئة مثلها﴾[3].

وقد دل على هذا قوله في الحديث:

(يا عبادي إنّي حرمتُ الظلمَ على نفسيْ، وجعلتُهُ بينكُمْ محرّماً فلا تظالموا)[4].

فإن هذا خطابٌ لجميع العباد أن لا يظلم أحدٌ أحداً، وأمر العالم في الشريعة مبني على هذا، وهو العدل في الدماء، والأموال، والأنصياع، والأنساب، والأعراض.

ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك، ومقابلة العادي بمثل فعله، لكن المماثلة قد يكون علمها أو عملها معتذراً ومتعسراً، ولهذا يكون الواجب ما يكون أقرب إليها بحسب الإمكان. ويقال: هذا أمثل، وهذا أشبه، وهذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما هو العدل والحق في نفس الأمر، إذ ذاك معجوز عنه، ولهذا قال تعالى:

﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾[5].

فذكر أنه لم يكلف نفساً إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط، لأن الكيل لا بد له أن يتفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبة، أو حبات، وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء يسير لا يمكن الاحتراز منه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

فقال تعالى:

﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾[1].

ولهذا كان القصاص مشروعاً إذا أمكن استيفاؤه من غير جَنَفٍ[2] كالاقتصاص في الجروح التي تنتهي إلى عظم، وفي الأعضاء التي تنتهي إلى مفصل، فإذا كان الجنف واقعاً في الاستيفاء عدل إلى بدله وهو الدّية، لأنه أشبه بالعدل من إتلاف زيادة في المقتصّ منه، وهذه حجة من رأى من الفقهاء أنه لا قَود[3]، إلا بالسيف في العنق قال: لأن القتل بغير السيف وفي غير العنق لا نعلم فيه المماثلة، بل قد يكون التحريق، والتغريق، والتوسيط، ونحو ذلك أشد إيلاماً، لكن الذين قالوا يفعل مثل ما فعل، قولهم أقرب إلى العدل.

فإنه مع تحري التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل ما يقدر عليه من العدل ما حصل من تفاوت الألم خارج عن قدرته.

وأما إذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه فقوبل ذلك بضرب عنقه بالسيف، أو رَضّ رأسه بين حجرين فضُرب بالسيف، فهنا قد تيقّنا يقيناً عدم المعادلة والمماثلة، وكنا قد فعلنا ما تيقّناه انتفاء المماثلة فيه، وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الأول، فإن المماثلة قد تقع إذ التفاوت فيه غير متيقن، وكذلك القصاص في الضربة واللطمة ونحو ذلك، عدل عنه طائفة من الفقهاء إلى التعزير لعدم إمكان المماثلة فيه.

والذي عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص «أحمد» ما جاءت به سنة رسول الله ﷺ من ثبوت القصاص به، لأن ذلك أقرب إلى العدل والمماثلة.

فإنا إذا تحرينا أن نفعل به من جنس فعله، ونقرب القدر من القدر، كان هذا أمثل من أن نأتي بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنساً وقدراً وصفة، وهذا النظر أيضاً في ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريباً أو بالقيمة، كما نص «أحمد» على ذلك في مواضع ضمان الحيوان وغيره، ونص عليه «الشافعي» فيمن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٢) الجنف: الظلم، وأجنف: عدل عن الحق.

(٣) القوَد: القصاص.

خرب حائط غيره أنه يبنيه كما كان، وبهذا قضى «سليمان» عليه السلام في حكومة الحرث التي حكم فيها هو وأبوه، كما قد بُيّن ذلك في موضعه.

فجميع هذه الأبواب المقصودة للشريعة فيها تحري العدل بحسب الإمكان، وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل في نفس الأمر، وإن كان كل منهم قد أوتي علماً وحكماً، لأنه هو الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل، وضدّه الظلم.

لا بدّ أن يسبق العدلَ العلم:

قال سبحانه في الحديث القدسي:

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[1].

ولما كان العدل لا بد أن يتقدمه علم، إذ من لا يعلم لا يدري ما العدل. والإنسان ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه، فصار عالماً عادلاً.

صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف؛ العالم العادل، والجاهل الظالم، فهذان من أهل النار كما قال ﷺ:

(القضاةُ ثلاثةٌ: قاضيانِ في النارِ، وقاضٍ في الجنة، رجلٌ عَلِمَ الحقَّ وقضى به فهو في الجنةِ، ورجلٌ قَضىٰ للناسِ على جهلٍ فهو في النار، ورجلٌ علم الحقَّ وقضى بخلافه فهو في النار)[2].

فهذان القسمان كما قال من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ، ومن قال في القرآن برأيه فأخطأ فليتبوأ مقعده من النار.

وكل حكم بين اثنين فهو قاض، سواء كان صاحب حرب، أو متولي ديوان، أو منتصباً للاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى الذي يحكم بين الصبيان في الخطوط، فإن الصحابة كانوا يعدونه من الحكام. ولما كان الحكام

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٠)، والبغوي في شرح السنة (١٠/ ٩٤)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١١٦).

مأمورين بالعدل وبالعلم وكان المفروض إنما هو بما يبلغه جهد الرجل.

هداية الله للإنسان وأنواعها:

قال النبي ﷺ:

(إذا اجتهَدَ الحَاكِمُ فأصابَ فلَهُ أجرانِ، وإذا اجتهدَ فأخطأً فلَهُ أجرٌ)[1].

فلما ذكر في أول الحديث ما أوجبه من العدل وحرمه من الظلم على نفسه وعلى عباده، ذكر بعد ذلك إحسانه إلى عباده مع غناه عنهم، وفقرهم إليه، وأنهم لا يقدرون على جلب منفعة لأنفسهم، ولا دفع مضرة إلا أن يكون هو الميسر لذلك. وأمر العباد أن يسألوه ذلك، وأخبر أنهم لا يقدرون على نفعه ولا ضره، مع عظم من يوصل إليهم من النعماء، ويدفع عنهم من البلاء، وجلب المنفعة، ودفع المضرة إما أن يكون في الدين أو في الدنيا.

فصارت أربعة أقسام:

الهداية، والمغفرة، وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين.

والطعام، والكسوة، وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا.

وإن شئت قلت: الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن، وهو الأصل في الأعمال الإرادية. والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن، الطعام لجلب المنفعة، واللباس لدفع المضرة. وفتح الأمر بالهداية فإنها وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين، فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه:

﴿سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾[2].

وقال موسى:

﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[3].

وقال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (١٣/٢٦٨)، ومسلم (١٧١٦)، والترمذي (١٣٢٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، والنسائي (٨/٢٢٤)، والبغوي في شرح السنة (٢٥٠٩)، وأحمد في المسند (٤/١٩٨ ـ ٢٠٤).

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١ ـ ٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٠.

﴿وهديناه النجدين﴾[1].

وقال تعالى:
﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[2].

ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام:

أحدها: الهداية إلى مصالح الدنيا، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم، وبين المؤمن والكافر.

والثاني: الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم، وأمرهم بذلك، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى:

﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾[3].

وقال تعالى:
﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾[4].

وقال تعالى:
﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[5].

فهذا مع قوله تعالى:
﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[6].

يبين أن الهدى الذي أثبته هو البيان، والدعاء، والأمر، والنهي، والتعليم، وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذي نفاه، وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والقسم الثالث: الهدى الذي هو جَعْلُ الهدى في القلوب، وهو الذي يسميه

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٦) سورة القصص، الآية: ٥٦.

بعضهم: بالإلهام والإرشاد، وبعضهم يقول: هو خَلْقُ القدرة على الإيمان، كالتوفيق عندهم ونحو ذلك. وهو بناءً على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل. فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك، خلق القدرة على الطاعة، وأما من قال: إنهما استطاعتان.

إحداهما: قبل الفعل، وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى:

﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[1].

وقال النبي ﷺ «لعمرانْ بن حصين»[2]:

(صَلِّ قائماً، فإنْ لم تستطعْ فقاعداً، فإن لم تستطعْ فعلىٰ جَنْبٍ)[3].

وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارة، والترك أخرى، وهي الاستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها، كما أن أولئك المخالفون لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة، وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعاً، كما بسطناه في غير هذا الموضع، فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعاً.

والثانية: المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله تعالى:

﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾[4].

وفي قوله:

﴿لا يستطيعون سمعاً﴾[5].

وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) عمران بن حصين، أبو نجيد الخزاعي: من علماء الصحابة، أسلم عام خيبر، بعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم، وهو ممن اعتزل حرب صفين، توفي (٥٢ هـ).

(٣) رواه البخاري (٢/٤٨٢)، وأبو داود (٩٥١)، والنسائي (٣/٢٢٣)، والترمذي (٣٧٢)، والبغوي في شرح السنة (٩٨٣)، وأحمد في المسند (٤/٤٢٦) والبيهقي في السنن (٣/١٥٥).

(٤) سورة هود، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٠١.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[٢].

وفي قوله تعالى:

﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾[٣].

وأمثال ذلك، وهذا الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له، ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه، وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال:

(يا عباديْ كلكُمْ ضالٌّ إلا من هديتُهُ، فاستهدوني أهدِكُم)[٤].

فأمر العباد بأن يسألوه الهداية، كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[٥]

وعند القدرية أن الله لا يقدر من الهدي إلا على ما فعله من إرسال الرسل، ونصب الأدلة، وإزاحة العلة، ولا فرية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى، ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى.

وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله تعالى:

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[٦].

فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذي يجوِّزه عليه بعض المُثبتة، وبيان أنه هو الذي يهدي عباده رداً على القدرية، فأخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة، وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية، وإن كان كل منهما قصده تعظيماً لا يعرف ما اشتمل عليه قوله:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٦) سورة يونس، الآية: ٢٥.

والقسم الرابع: الهدى في الآخرة كما قال تعالى:

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾(1).

وقال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾(2).

فقوله يهديهم ربهم بإيمانهم، كقوله تعالى:

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾(3).

على أحد القولين في الآية.

وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا، كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا، وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدىٰ إلى طريق النار كما قال تعالى:

﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾(4).

وقال تعالى:

﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾(5).

وقال تعالى:

﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري.فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى

---

(1) سورة الحج، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.
(2) سورة يونس، الآية: ٩.
(3) سورة الطور، الآية: ٢١.
(4) سورة الصافات، الآية: ٢٣.
(5) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [1].

وقال تعالى:

﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ [2] الآية.

فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصمّاً، فإن الجزاء أبداً من جنس العمل كما قال ﷺ:

(الراحمونَ يرحمُهُم الرحمنُ، ارحموا مَنْ في الأرضِ يرحمْكُمْ مَنْ في السماءِ) [3].

وقال:

(مَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه عِلماً سهَّل له اللّهُ بهِ طريقاً إلى الجنّة، ومن يَسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّر اللّهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستَرَ مسلماً سترَهُ اللّهُ في الدنيا والآخرة، واللّهُ في عونِ العبدِ ما كَانَ العبدُ في عونِ أخيه) [4].

وقال:

(مَنْ سُئِلَ عن علمٍ يعلمه، فكتَمهُ ألجمهُ اللّهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ) [5].

وقد قال تعالى:

﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ [6].

وقال تعالى:

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٣) رواه الترمذي (١٩٢٥)، وأبو داود (٤٩٤١). والبيهقي في السنن (٤١/٩)، وفي الآداب (٣٣)، وأحمد في المسند (٦٠/٢)، والحاكم في المستدرك (١٥٩/٤)، والحميدي في مسنده (٥٩١).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥)، وأحمد في المسند (٢٥٢/٢). والبيهقي في الآداب (١٠٥).

(٥) رواه أحمد في المسند (١٦١/١)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٥١)، والحاكم (١٠٢/١)، والبغوي (١٤٠).

(٦) سورة النور، الآية: ٢٢.

﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾[1].

وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة.

ولهذا أيضاً يجري الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل:

[من عمل بما علم، ورّثه اللّهُ عِلْمَ مَا لم يعلم].

وقد قال تعالى:

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً إلى قوله مستقيماً﴾[2].

وقال تعالى:

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[3].

وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم﴾[4].

وقال تعالى:

﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[5].

فسروه بالنصر والنجاة كقوله تعالى:

﴿يوم الفرقان﴾[6].

وقد قيل نور يفرق بين الحق والباطل ومثله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٦.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

قوله تعالى:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[١].

وعد المتقين بالمخارج من الضيق، وبرزق المنافع ومن هذا قوله تعالى:

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[٢].

وقوله تعالى:

﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[٣].

ومنه قوله تعالى:

﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾[٤].

وبإزاء ذلك إن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله:

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم﴾[٥].

وقال تعالى:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[٦].

وقال تعالى:

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾[٧].

إلى قوله تعالى:

﴿لا يؤمنون﴾[٨].

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٤) سورة الفتح، الآيات: ١ ـ ٣.
(٥) سورة الصف، الآية: ٥.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٣.
(٧) و (٨) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

إلى قوله تعالى:
﴿يعمهون﴾[1].

ماذا عن ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾؟؟

وهذا باب واسع ولهذا قال من قال من السلف:

إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وقد شاع على لسان العامة أن قوله تعالى:
﴿اتقوا الله ويعلمكم الله﴾[2].

من الباب الأول. حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: واتقوا الله ويعلمكم! ولا قال: فيعلمكم! وإنما أتى بواو العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني.

وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زُرني وأزورك، وسلِّم علينا ونسلم عليك، ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين. والتعارض من الطرفين كما لو قال لسيده: اعتقني ولك عليّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلّقني ولك ألف. أو اخلعني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف، أو على ألف، وكذلك لو قال: أنت حرٌّ وعليك ألف، أو أنت طالق وعليك ألف، فإنه كقوله: على ألف، أو بألف عند جمهور الفقهاء. والفرق بينهما قول شاذ، ويقول أحد المتعارضين للآخر أعطيك هذا وآخذ هذا ونحو ذلك من العبارات، فيقول الآخر نعم، وإن لم يكن أحدهما هو السبب للآخر دون العكس.

فقوله تعالى:
﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[3].

قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم وهلمّ جرا.

وجوب التوكل على الله:

وأما قوله تعالى:

(يا عبادي كلكُم جائعٌ إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعمُوني أطعمْكُم، وكلكم عارٍ إلا من كَسَوتُهُ، فاستكسوني أكسِكُم)[1].

فيقتضي أصلين عظيمين:

أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة، كالطعام ودفع المضرة كاللباس، وإنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال تعالى:

﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم﴾[3].

فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله تعالى:

﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿فأطعموا القانع والمعتر﴾[5].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥.
(٤) سورة البلد، الآية: ١٤.
(٥) سورة الحج، الآية: ٣٦.

وقوله تعالى:

﴿وكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾(١).

وقال تعالى:

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾(٢).

فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر. ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب. إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصولِ المطلوبِ، ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سبباً إلا بمشيئة الله تعالى، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل، فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخلّ بواجب التوحيد.

ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب، فمن رجا نصراً، أو رزقاً، من غير الله خذله اللّهُ.

كما قال «علي» رضي الله عنه:

[لا يرجوَنّ عبدٌ إلا ربّه، ولا يخافَنَّ إلا ذنبَه].

وقد قال تعالى:

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده﴾(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٤٧.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

وقال تعالى:

﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمه هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾[1].

وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر به من الأسباب، فهو أيضاً جاهل ظالم عاصٍ لله بترك ما أمره، فإن فعل المأمور به عبادة لله.

وقد قال تعالى:

﴿فاعبده وتوكل﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[3].

وقال تعالى:

﴿قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾[4].

وقال شعيب عليه السلام:

﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾[5].

وقال تعالى:

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾[6].

وقال تعالى:

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾[7].

وقال تعالى:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.
(٥) و(٦) سورة الشورى، الآية: ١٠.

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾(١).

فليس من فعل شيئاً أمر به، وترك ما أُمر به من التوكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلاً ما أمر به، وترك فعل ما أمر به من السبب، إذ كلاهما مُخلٌّ ببعض ما وجب عليه، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم، وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب.

وقد روى «أبو داود» في سننه أن النبي ﷺ:

(قضى بين رجلينِ، فقال المقضي عليه: حسبيَ اللّهُ ونعمَ الوكيلُ، فقال النبي ﷺ: إنَّ اللّهَ يلومُ على العجزِ، ولكن عليك بالكَيْسِ، فإنْ غلبكَ أمرٌ فقلْ حسبيَ اللّهُ ونعمَ الوكيل)(٢).

وفي صحيح «مسلم» عن «أبي هريرة» رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

(المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللّهِ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ. احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللّهِ ولا تعجزْ، فإنْ أصابَك شيءٌ فلا تقلْ: لو أني فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر اللّهُ، وما شاء فعل، فإنَّ اللوم يفتحُ عملَ الشيطان)(٣).

ففي قوله ﷺ:

(احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ بالله ولا تعجز).

أمر بالتسبب المأمور به، وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس، كما قال في الحديث الآخر:

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٢٧)، ورواه الطبراني (مجمع الزوائد: ٨/٩١).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/٣٧٠)، ومسلم (٢٦٦٤).

(إنّ اللّهَ يلومُ عن العجزِ، ولكن عليكَ بالكَيْسِ).

وكما قال ﷺ:

(الكيِّس مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بَعْدَ الموت، والعاجزُ من أتْبَعَ نَفسَهُ هواها وتمنّى على اللّهِ)[1].

فالعاجز في الحديث مقابل الكيِّسِ.

ومن قال: العاجز الذي هو مقابل البرّ، فقد حرّف الحديث ولم يفهم معناه، ومنه الحديث:

(كلُّ شيءٍ بقدَرٍ حتى العجزُ والكَيْس)[2].

ومن ذلك ما روى «البخاري» في «صحيحه» عن «ابن عباس» قال:

كان أهل اليمن يحجُّونَ ولا يتزودونَ، يقولون: نحن المتوكلونَ، فإذا قدموا سألوا الناسَ فقال الله تعالى:

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[3].

فمن فعل ما أُمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً، كان مطيعاً لله في هذين الأمرين، بخلاف من ترك ذلك متلفتاً إلى أزوادِ الحجيج كلًّا على الناس، وإن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله، ومواساة المحتاج، فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به، وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف.

طائفة تضعف أمر السبب المأمور به، فتعدُّه نقصاً، أو قدحاً في التوحيد

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦١)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد في المسند (١٢٤/٤)، والبغوي في شرح السنة (٤١١٧)، والحاكم في المستدرك (٥٧/١)، وابن المبارك في الزهد (٥٦)، والبيهقي في الآداب (٩٩١)، وفي السنن (٣٦٩/٣)، ومعنى دان نفسه: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٥)، ومالك في الموطأ (٨٩٩/٢)، والبيهقي في السنن (٢٠٥/١٠)، وأحمد في المسند (١٢٢/١)، والبغوي في شرح السنة (٧٣).
الكيس: العقل.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

والتوكل، وإن كان تركه من كمال التوكل والتوحيد، وهم في ذلك ملبوس عليهم، وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة.

ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبةً ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتّلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك.

لكن كان مباشرة الدواءِ الخفيف، والسعيُ اليسيرُ، وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجبَ عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدرُهُ درهم أو نحوه.

وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً وانقطاعاً عن الخاصة، ظناً أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة، وقد قال في هذا الحديث:

(كلكُمْ جائعٌ إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعَمُوني أطعمْكُمْ) وقال (فاستكسوني أكسِكُم)[1].

الله يطالب العباد أن يسألوه في كل شيء:

وفي الطبراني وغيره، عن النبي ﷺ:

(ليسئلْ أحدُكم ربَّه حاجتَهُ كلَّها حتى شِسْعَ نعلِه إذا انقطَعَ فإنَّهُ إنْ لمْ ييسّره لم يتيسَّرْ)[2].

وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضاً استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك.

وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقاً، بل دفع المخلوق والمأمور، وإنما

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٣٦٠٧)، وأبو يعلى في مسنده (٤٥٦٠) بلفظ: سلوا الله كل شيء... والبزار في كشف الأستار (٣١٣٥).

الشِسْع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الاصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام.

غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه، فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله بتيسيره لعمل أهل السعادة، ومن قدره من أهل الشقاوة كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء، كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث «علي بن أبي طالب» و«عمران بن حصين»[(١)] و«سُراقة بن جعشم»[(٢)] وغيرهم.

ومنه حديث «الترمذي» حدثنا «ابن أبي عمر» حدثنا «سفيان» عن «الزهري» عن «أبي خزامة» عن أبيه قال:

سألت النبي ﷺ فقلت:

يا رسول الله: أرأيتَ أدويةً نتداوى بها، ورقىً نسترقي بها، وتقاةً نتّقيها، هل تردُّ من قدرِ الله شيئاً؟؟.

(فقال هي مِنْ قدرِ اللّهِ)[(٣)].

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل.

وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب، والرجاء، والخوف، والشكر، ونحو ذلك، وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو إما كافر، وإما منافق، لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، منهم سابق بالخيراتِ، ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك، وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل لوماً من التاركين لما أُمروا به من أعمال ظاهرة، مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذمّ والعقاب يتوجه إلى من تركَ المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، وإن كانت الأمورُ الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها،

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) سراقة بن جعشم: هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، أبو سفيان: صحابي، له شعر، أخرجه أبو سفيان بن حرب ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر، وأسلم بعد غزوة الطائف. توفي (٢٤ هـ).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٦)، والحاكم في المستدرك (٤/٤٠٢).
تُقاة: ما يُتقى ويُحذر.

والأمورُ الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها.

دعوة الله عباده إلى التوبة:

وأما قوله:

(يا عباديْ إنكُمْ تحطئونَ بالليلِ والنّهار وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً)(١).

وفي رواية:

(وأنا أغفرُ الذنوبَ ولا أبالي، فاستغفروني أغفره لكم)(٢).

فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان:

أحدهما: المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾(٣).

إلى قوله:

﴿ثم لا تنصرون﴾(٤).

فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله، ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب.

وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب، فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه.

قال تعالى:

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾(٥).

إلى قوله:

﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾(٦).

---

(١) و (٢) سبق تخريجه.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١١.

وقال تعالى:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾[1].

إلى قوله تعالى:

﴿أفلا يتوبون إلى الله وليستغفروا له والله غفور رحيم﴾[2].

وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم، وإن كان من الناس من يستثني بعض الذنوب كقول بعضهم:

[إن توبة الداعية إلى البدع لا تُقبل باطناً للحديث الإسرائيلي الذي فيه، فكيف من أضللت؟؟].

وهذا غلط؛ فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى:

﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾[3].

قال «الحسن البصري»[4] [انظروا إلى هذا الكرم، عذبوا أولياءه وفتنوهم، ثم هو يدعُوهم إلى التوبة].

وكذلك توبة القاتل ونحوه. وحديث «أبي سعيد» المتفق عليه في الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً يدل على قبول توبته وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك، ولا نصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة، فليست آية «الفرقان» بمنسوخة بآية «النساء» إذ لا منافاة بينهما، فإنه قد علم يقيناً أن كل ذنب فيه وعيد، فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة، إذ نصوص التوبة مبينة لتلك

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٤) الحسن البصري: هو الحسن بن يسار، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، وهو أحد العلماء والفقهاء الفصحاء الشجعان، ولد بالمدينة، وشبّ في كنف علي بن أبي طالب، كان كلامه يشبه كلام الأنبياء، توفي عام (١١٠ هـ).

النصوص، كالوعيد في الشرك، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، وغير ذلك من الذنوب.

ومن قال من العلماء: توبتُه غير مقبولة، فحقيقة قوله التي تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب، وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة، وهذا حقٌّ، ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين.

فمن تاب من ظلم لم يسقُطْ بتوبته حقُّ المظلوم، لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته، وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة، فينبغي للظالمِ التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلساً، ومع هذا فإن شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله، كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء.

ولهذا في حديث القصاص الذي ركب فيه «جابر بن عبد الله» إلى «عبد الله بن أنيس» شهراً حتى شافهه به[1] وقد رواه الإمام «أحمد» وغيره واستشهد به «البخاري» في «صحيحه».

وفي صحيح «البخاري» من حديث «أبي سعيد»:

(إنَّ أهلَ الجنةِ إذا عبروا الصراطَ وقفوا على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيقتصُّ لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونقوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنة)[2].

وقد قال سبحانه لما قال:

---

(١) بداية الحديث:
(يحشر الله العباد عراةً عزلاً...).
وفيه: (أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمةٍ حتى اللطمة).
رواه أحمد في المسند (٣/٤٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٢٧ ـ ٤/٥٧٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٣) والخطيب في الرحلة في طلب الحديث (٣١).

(٢) رواه البخاري (٥/٧٠) و(١١/٣٤٥)، وأحمد في المسند (٣/٥٧)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٦٤).

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾[1].

والاغتياب من ظلم الأعراض.

قال تعالى:

﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾[2].

فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم.

وفي الحديث الصحيح:

(مَنْ كَان عندهُ لأخيه مظلمةٌ من دمٍ، أو مالٍ، أو عرضٍ، فليأتِهِ فليستحلَّ منه قبلَ أن يأتِيَ يومٌ ليسَ فيه درهمٌ ولا دينارٌ إلاّ الحسنات والسيئات، فإن كانت له حسناتٌ وإلا أخذ من سيئاتِ صاحِبِهِ فطُرحتْ عليه ثمّ يُلقى في النار)[3].

أو كما قال:

وهذا فيما علمه المظلوم من العوض. فأما إذا اغتابه، أو قذفه، ولم يعلم بذلك فقد قيل: من شروط توبته إعلامهُ، وقيل: لا يشترط ذلك، وهذا قول الأكثرين، وهما روايتان عن «أحمد» لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والاستغفار وعمل صالح يهدي إليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه.

قال «الحسن البصري»:

[كفارةُ الغِيبة أن تستغفر لمن اغتبته].

وأما الذنوب التي يطلق الفقهاء فيها نفي قبول التوبة مثل قول أكثرهم:

[لا تقبلُ توبةُ الزنديق، وهو المنافق].

وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٣) رواه الإمام البخاري (٥/٧٣)، والترمذي (٢٤٢١)، والبغوي في شرح السنة (٤١٦٣)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٥٠٦).

وكـذلك قـول كثير منهم أو أكثـرهـم في سائـر الجرائم، كمـا هو أحـد قـولي «الشافعي» وأصح الروايتين عن «أحمد».

وقولهم في هؤلاء إذا تابوا بعد الدفع إلى الإمـام لم تقبل تـوبتهم، فهذا إنمـا يـريدون بـه رفع العقـوبة المشـروعـة عنهم، أي لا تقبـل تـوبتهم بحيث يخلى بـلا عقوبة، بل يعاقب إما لأن التوبة غير معلومة الصحة، بل يظن به الكذب فيهـا، وإما لأن رفع العقوبة بذلك يفضي إلى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم.

ولا يريدون بذلك أن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فـإن الله لا يقبل تـوبته في الباطن، إذ ليس هذا قول أحد من أئمـة الفقهاء بـل هذه التـوبة لا تمنـع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى:

﴿إنمـا التوبـة على الله للذين يعملون السوء بجهـالـة ثم يتـوبـون من قـريب فـأولئـك يتـوب الله عليهم وكـان الله عليمـاً حكيمـاً وليست التـوبـة للذين يعملون السيئـات حتى إذا حضر أحـدهم الموت قـال إني تبت الآن ولا الذين يمـوتون هم كفار﴾[1] الآية.

قال «أبو العالية»:

سـألت أصحـاب محمـد ﷺ عن ذلـك فقـالـوا لي: كـلُّ من عصىٰ اللّهَ فهـو جاهل، وكل من تابَ قبل الموت فقد تاب من قريب.

وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذي قال الله فيه:

﴿فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الـذي آمنت به بنـو إسرائيـل وأنا من المسلمين﴾[2].

قال الله:

﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾[3].

وهذا استفهام إنكار بيَّنَ به أن هذه التوبة ليست هي التوبـة المقبولـة المأمـور بها، فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذ قابل الإخبار، وإمـا بمعنى الذم والنهي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) و (٣) سورة يونس، الآية: ٩٠.

إذ قابل الإنشاء، وهذا من هذا ومثله قوله تعالى:

﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾[(١)] الآية.

بين أن التوبة بعد رؤية البأس لا تنفع، وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث:

(إنّ الله يقبلُ توبَةَ العبدِ ما لمْ يغرغر)[(٢)].

ورُوي:

(ما لم يعاني).

وقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ: عَرَضَ على عمِّه التوحيدَ في مرضه الذي مات فيه، وقد عادَ يهودياً كان يخدمه، فعرض عليه الإسلامَ فأسلم، فقال: الحمدُ لله الذي أنقذَهُ بي من النار ثم قال (آووا أخاكم)[(٣)].

ومما يبين أن المغفرة العامة في «الزمر» هي للتائبين أنه قال في سورة النساء:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[(٤)].

فقيد المغفرة بما دون الشرك، وعقلها على المشيئة، وهناك أطلق وأعلم، فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حق غير التائب، ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة خلافاً لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج المعتزلة، وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة، كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقاً، ودين الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه. ونصوص الكتاب

---

(١) سورة غافر، الآية: ٨٤.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٣٢/٢)، والترمذي (٣٥٣١)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبان (٢٤٤٩)، والحاكم في المستدرك (٢٥٧/٤)، والبغوي في شرح السنة (١٣٠٦).
ومعنى ما لم يغرغر: ما لم تبلغ روحه حلقومه، فتكون بمنزلة الشيء يتغرغر به.

(٣) رواه الإمام البخاري (١٧٦/٣)، وأبو داود (٣٠٩٥)، والبغوي (٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٢٤).

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٨.

والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أنّ مِنْ أهل الكبائر مَنْ يعذَّبُ، وأنه لا يبقى في النار من في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان.

ترتفع درجات العبد ويحبه الله بعد توبته:

النوع الثاني: من المغفرة العامة التي دل عليها قوله:

(يا عباديْ إنكُم تخطئونَ بالليلِ والنهارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً)[1].

المغفرة بمعنى تخفيف العذاب، أو بمعنى تأخيره إلى أجل مسمى، وهذا عام مطلقاً، ولهذا شفع النبي ﷺ في «أبي طالب» مع موته على الشرك، فنُقل من غمرة من نار حتى جعل في ضَحْضاحٍ من نارٍ في قدميه نعلان من نار يغلي منهما دماغُه قال:

(ولولا أنا لكانَ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النار)[2].

وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه:

﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**﴾[3].

وقوله:

﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة**﴾[4].

وقوله:

﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾[5].

أعمال العباد لا تفيد الله ولا تضره:

وأما قوله عز وجل في الحديث:

(يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[6].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام البخاري (١٤٩/٧)، ومسلم (٢١٠)، والضحضاح: هو الماء القليل وقد شبه في القلة ما يكون فيه أبو طالب من النار القليلة.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٦) سبق تخريجه.

فإنه هو بيّن بذلك أنه ليس هو فيما يحسن به إليهم من أجابة الدعوات، وغفران الزلات بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما هي عادة المخلوق الذي يعطي غيره نفعاً ليكافئه عليه بنفع، أو يدفع عنه ضرراً ليتقي بذلك ضرره.

فقال:

(إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضرّي فتضروني)[1].

فلست إذاً أحبسكم بهداية المستهدي، وكفاية المستكفي المستطعم، والمستكسي، بالذي أطلب أن تنفعوني، ولا أنا إذا غفرت خطاياكم بالليل والنهار أتقي بذلك أن تضروني، فإنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني، إذ هم عاجزون عن ذلك، بل ما يقدرون عليه من الفعل لا يقدرون عليه إلا بتقديره وتدبيره، فكيف بما لا يقدرون عليه، فكيف بالغني الصمد الذي يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعاً أو ضراً؛ وهذا الكلام كما بين أن ما يفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار، فإنهم لن يبلغوا أن يفعلوا مثل ذلك، فكذلك يتضمن أن ما يأمرهم به من الطاعات وما ينهاهم عنه من السيئات، فإنه لا يتضمن استجلاب نفعهم، كأمر السيد لعبده، أو الوالد لولده، أو الأمير لرعيته، ونحو ذلك ولا دفع مضرتهم كنهي هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم، فإن المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض، ومضرة بعض، وكانوا في أمرهم ونهيهم قد يكونون كذلك، والخالق سبحانه مقدَّسٌ عن ذلك، فبين تنزيهَهُ عن لحوقِ نفعِهِمْ وضرهم في إحسانه إليهم بما يكون من أفعاله بهم وأوامره لهم.

قال «قتادة»:

[إن الله لم يأمر العبادَ بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهُم عما نهاهم عنه بخلاً به عليهم، ولكن أمرهم بما فيه صلاحُهم، ونهاهم عما فيه فسادُهم].

إعطاء الله السائلين له لا يُنقص من ملكه شيئاً:

ولهذا ذكر هذين الأصلين بعد هذا، فذكر أن برَّهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه ولا ينقص، وإن إعطاءَهُ إياهم غاية ما يسألونه

---

(١) سبق تخريجه.

نسبته إلى ما عنده أدنى نسبة، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملكه بطاعة الرعية، وينقص ملكه بالمعصية، وإذا أعطى الناس ما يسألونه أنفذ ما عنده، ولم ينفعهم وهم في ذلك يبلغون مضرته ومنفعته، وهو يفعل ما يفعله من إحسان، وعفو، وأمر، ونهي، لرجاء المنفعة وخوف المضرة فقال:

(يا عبادي لو أنَّ أولكُمْ، وآخركَم، وإنسكُمْ، وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أنِّ أوَّلكُم، وآخركم، وإنسكُمْ وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقصَ ذلكَ من ملكي شيئاً)[1].

إذ ملكه هو قدرته على التصرف، فلا تزداد بطاعتهم، ولا تنقص بمعصيتهم، كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم، وتنقص بقلة المطيعين لهم، فإن ملكه متعلق بنفسه، وهو خالقُ كل شيء، وربُّه، ومليكُه، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

والملك قد يُراد به القدرة على التصرف والتدبير، ويراد به نفس التدبير والتصرف، ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير، ويراد به ذلك كله وبكل حال فليس بر الأبرار وفجور الفجار موجباً لزيادة شيء من ذلك، ولا نقصه بل هو بمشيئته، وقدرته يخلق ما يشاء، فلو شاء أن يخلق مع فجور الفجار ما شاء لم يمنعه من ذلك مانع، كما يمنع الملوك فجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك، ولو شاء أن لا يخلق مع بر الأبرار شيئاً مما خلقه لمن يكن برهم محوجاً له إلى ذلك، ولا معيناً له، كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين.

ثم ذكر حالهم في النوعين سؤال بره وطاعة أمره اللذين ذكرهما في الحديث، حيث ذكر الاستهداء، والاستطعام، والاستكساء، وذكر الغفران، والبر، والفجور فقال:

(لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، كانوا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المخيُط إذا دخل البحر)[2].

(١) و (٢) سبق تخريجه.

والخياط والمخيط: ما يخاط به. إذ الفعل والمفعَل والمفعَال من صيغ الآلات التي يفعل بها كالمسعر والحلاب والمنشار.

فبين أن جميع الخلائق إذا سألوا وهم في مكان واحد وزمان واحد، فأعطي كل إنسان منهم مسألته لم ينقصه ذلك مما عنده إلا كما ينقص الخياط، وهي الإبرة إذا غمست في البحر.

وقوله لم ينقص مما عندي: فيه قولان؛ أحدهما: أنه يدل على أن عنده أموراً موجودة يعطيهم منها ما سألوه إياه، وعلى هذا فيقال لفظ النقص على حاله، لأن الإعطاء من الكثير وإن كان قليلاً فلا بد أن ينقصه شيئاً ما، ومن رواه (لم ينقص من ملكي)[1].

يحمل على ما عنده كما في هذا اللفظ، فإن قوله مما عندي فيه تخصيص ليس هو في قوله (من ملكي) وقد يقال:

المعطَى: إما أن يكون أعياناً قائمة بنفسها، أو صفات قائمة بغيرها، فأما الأعيان فقد تنقل من محل إلى محل، فيظهر النقص في المحل الأول. وأما الصفات فلا تنقل من محلها، وإن وجد نظيرها في محل آخر كما يوجد نظير علم المعلم في قلب المتعلم من غير زوال علم المعلم، وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبله من غير انتقال كلام المتكلم الأول إلى الثاني.

وعلى هذا فالصفات لا تنقص مما عنده شيئاً وهي من المسؤول كالهدى، وقد يجاب عن هذا بأن هو من الممكن في بعض الصفات أن لا يثبت مثلها في المحل الثاني حتى تزول عن الأول، كاللون الذي ينقص، وكالروائح التي تعبق بمكان وتزول، كما دعى النبي ﷺ على حمى المدينة أن تنقل إلى «مهيعة» وهي «الجحفة»[2] وهل مثل هذا الانتقال بانتقال عين العرض الأول أو بوجود مثله من غير انتقال عينه قولان:

إذ منهم من يجوز انتقال الأعراض، بل من يجوز أن تجعل الأعراض أعياناً،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الجحفة: منزل بين المدينة ومكة قريب من رابغ كان اسمها مهيعة.

كما هو قول «ضرار»[1] و«النجار» وأصحابهما كـ«البرغوث»[2] و«حفص الفرد» لكن إن قيل هو بوجود مثله من غير انتقال عينه، فذلك يكون مع استحالة العرض الأول وفنائه، فيعدم عن ذلك المحل، ويوجد مثله في المحل الثاني.

والقول الثاني: إن لفظ النقص هنا كلفظ النقص في حديث «موسى» و«الخضر» الذي في الصحيحين من حديث «ابن عباس» عن «أبي بن كعب» عن النبي ﷺ وفيه:

(أن الخضرَ قال لموسى لمّا وقع عصفورٌ على قارب السفينة، فنقرَ في البحر، فقال: يا موسى ما نقص علمي وعلمُكَ من علم اللّهِ إلا كما نقص هذا العصفورُ من هذا البحر)[3].

ومن المعلوم أن نفس علم الله القائم بنفسه لا يزول منه شيء بتعلم العباد، وإنما المقصود أن نسبة علمي وعلمك إلى علم الله كنسبة ما علق بمنقار العصفور إلى البحر، ومن هذا الباب كون العلم يورث كقوله ﷺ:
(العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ)[4].

ومنه قوله تعالى:
﴿وورث سليمان داود﴾[5]..

ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل في هذا، وإن كان العلم الأول ثابتاً كما قال «سعيد بن المسيب»[6] «لقتادة» وقد أقام عنده أسبوعاً سأله فيها مسائل

---

(١) ضرار بن عمرو الغطفاني: قاض من كبار المعتزلة، تقلبت أحواله وانشق عنهم فكفروه، ألف ثلاثين كتاباً منها ما ردّ عليهم بها، شهد عليه أحمد بن حنبل عند القاضي سعيد الجمحي فحكم عليه بالقتل مات عام (١٩٠ هـ).

(٢) برغوث: أبو عبد الله محمد الجهمي وهو رأس البدعة كان يناظر الإمام أحمد وقت المحنة، صنف كتباً منها (الاجتهاد) و(المضاهاة) و(الاستطاعة) وغيرها. توفي عام (٢٤٠ هـ).

(٣) جزء من حديث: رواه البخاري (٨/٣١٠ ـ ٣٢٢)، ومسلم (٢٢٣٨٠)، ورواه الترمذي بلفظ قريب (٣١٤٨)، وأبو داود أيضاً (٤٧٠٥)، و(٤٧٠٦) و(٤٧٠٧).

(٤) جزء من حديث: رواه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٣)، وأحمد (٥١٩٦)، والدارمي (١/٩٨)، وابن ماجة (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، والبغوي (١٢٩).

(٥) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٦) سعيد بن المسيب: المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت ولا يأخذ عطاءاً، وكان أحفظ =

عظيمة حتى عجب من حفظه وقال: [نزفتني يا أعمى] وإنـزاف القليب ونحوه: هـو رفع ما فيه بحيث لا يبقى فيه شيء. ومعلوم أن «قتادة» لو تعلم جميع علم «سعيد» لم يَزُلْ علمُه من قلبه كما يـزول الماء من القليب، لكن يقـال: التعليم إنما يكـون بالكلام، والكلام يحتاج إلى حركة وغيرها ممـا يكون بـالمحل ويـزول عنه، ولهـذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم كما قال تعالى:

﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا﴾[1].

ويقال قد أخرج العالم هـذا الحديث ولم يخـرج هذا، فـإذا كان تعليم العلم بـالكلام المستلزم زوال بعض مـا يقوم بـالمحـل وهـذا نـزيف وخـروج كـان كـلام «سعيد بن المسيب» على حقيقته ومضمـونه أنـه من تلك السبع الليـالي من كثرة مـا أجابه وكلمه ففارقه، أمور قـامت به من حـركات وأصـوات، بل ومن صفـات قائمـة بالنفس كان ذلك نزيفاً، ومما يقوي هذا المعنى أن الإنسان وإن كان علمه في نفسه فليس هو أمراً لازماً للنفس لزوم الألوان للمتلونات، بل قد يذهل الإنسـان ويفضل، وقد ينساه، ثم يذكره، فهو شيء يحضر تارة، ويغيب أخرى. وإذا تكلم بـه الإنسان وعلِمَـه فقد تكـل النفس وتعي حتى لا يقوى على استحضـاره إلا بعد مـدة، فتكون في تلك الحـال خاليـة عن كمال تحققـه واستحضاره الـذي يكون بـه العالم عـالماً بالفعل، وإن لم يكن نفس مـا زال هو بعينـه القائم على نفس السـائل والمستمـع، ومن قال هذا يقول كون التعليم يرسِّخ العلم من وجه لا ينافي ما ذكرناه.

وإذا كان مثل هذا النقص والنزيف معقولاً في علم العباد، كـان استعمال لفظ النقص في علم الله بناء على اللغة المعتادة في مثل ذلـك، وإن كان سبحـانه منـزهاً عن اتصـافه بضـد العلم بوجـه من الوجـوه، أو عن زوال علمه عنـه، لكن في قيـام أفعال به وحركات نزاعٌ بين الناس من المسلمين وغيرهم.

وتحقيق الأمر أن المراد مـا أخذ علمي وعلمـك من علم الله، وما نـال علمي وعلمك من علم الله، وما أحاط علمي وعلمك من علم الله كما قال تعالى:

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[2].

= النـاس لأحكام عمـر بن الخطاب وأقضيتـه، حتى سُمي راوية عمـر، ولد بـالمـدينـة المنـورة عـام (١٣ هـ) وتوفي بها عام (٩٤ هـ).

(١) سورة الكهف، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

إلا كما نقص أو أخذ أو نال هذا العصفور من هذا البحر، أي نسبة هـذا إلى هذا كنسبة هذا إلى هذا.

وإن كـان المشبه بـه جسماً ينتقـل من محل إلى محـل، ويـزول عن المحـل الأول، وليس المشبه كذلك، فإن هذا الفرق هو فرق ظاهر يعلمه المستمع من غيـر التباس كما قال ﷺ:

(إنكم سترونَ ربكُم كما ترونَ الشمس والقمر)[1].

فشبه الرؤية بالرؤية، وهي وإن كـانت متعلقة بـالمرئي في الـرؤية المشبهـة، والرؤية المشبه بها لكن قد علم المستمعون أن المرئي ليس مثل المـرئي، فكذلـك هنا شبّه النقص بالنقص، وإن كان كل من الناقص والمنقوص منه المشبّـه ليس مثل الناقص والمنقوص منـه المشبه بـه، ولهذا كـل أحد يعلم أن المعلم لا يـزول علمه بالتعليم، بل يشبهونه بضوء السراج الذي يحدث يقتبس منه كل أحد، ويأخذون ما شاؤوا من الشهب وهو باقٍ بحاله.

وهذا تمثيلٌ مطابق، فإن المستـوقد من السـراج يحدث الله في فتيله أو وقـوده ناراً من جنس تلك النار، وإن كان قد يقال أنها تستحيل عن ذلك الهواء مع أن النار الأولى باقية.

كذلك المتعلم يجعل في قلبه مثل علم المعلم، مع بقاء علم المعلم، ولهذا قال «علي» رضي الله عنه:

[العلمُ يزكـو على العمل] أو قال [على التعليم والمال ينقصُهُ النفقة].

وعلى هذا فيقال في حديث «أبي ذر» أن قوله [مما عندي] وقولـه [من ملكي] هو من هذا الباب وحينئذ فله وجهان:

أحدهما: أن يكون ما أعطاهم خارجاً عن مسمى ملكه ومسمى مـا عنده كمـا أن علم الله لا يدخل في نفس علم «موسى» و «الخضر».

والثاني: أن يقال: بل لفظ الملك وما عنده يتناول كل شيء وما أعـطاهم فهو جزء من ملكه ومما عنده، ولكن نسبت إلى الجملة هذه النسبة الحقيرة، ومما يحقق

---

(١) رواه البخاري (٢ /٢٧)، ومسلم (٦٣٣) وأبو داود في السنن (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥٤).

هذا القول الثاني أن «الترمذي» روى هذا الحديث من طريق «عبد الرحمن بن غنم» عن «أبي ذر» مرفوعاً فيه:

(لو أنّ أولكمْ، وآخركمْ، وإنسكمْ، وجنكمْ، ورطبكمْ، ويابسكمْ سألوني حتى تنتهي مسألةُ كلّ واحدٍ منهم، فأعطيتهمْ ما سألوني ما نقصَ ذلك مما عندي كمغرز إبرة لو غمسها أحدكمْ في البحر، وذلك أني جوادٌ، ماجدٌ، واجدٌ، عطائي كلامٌ، وعذابي كلامٌ، إنما أمري لشيءٍ إذا أردتُه أن أقولَ لَهُ: كُنْ، فيكون)[1].

فذكر سبحانَهُ أن عطاءه كلام، وعذابه كلام، يدل على أنه هو أراد بقوله [من ملكي] و[مما عندي] أي من مقدوري، فيكون هذا في القدرة كحديث «الخضر» في العلم والله أعلم.

ويؤيد ذلك أن في اللفظ الآخر الذي في نسخة «أبي مسهر» [لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر].

وهذا قد يقال فيه أنه استثناء منقطع، أي لم ينقص من ملكي شيئاً، لكن يكون حاله حال هذه النسبة، وقد يقال بل هو تام، والمعنى على ما سبق.

الله لا يظلم أحداً:

ثم ختمه بتحقيق ما بيّنه فيه من عدله وإحسانه فقال:

(يا عبادي إنما هيَ أعمالُكُم أُحصيها لكم، ثمّ أوفيكُمْ إيّاها، فمَنْ وَجَدَ خيراً فليحمد اللّهَ، ومن وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلومَنَّ إلا نفسَهُ)[2].

فبيّن أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحساناً يستحق به الحمد، لأنه هو المنعم بالأمر بها، والإرشاد إليها، والإعانة عليها، ثم إحصائها، ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وهو وإن كان قد كتب على نفسه الرحمة وكان حقاً عليه نصر المؤمنين كما تقدم بيانه، فليس وجوب ذلك كوجوب حقوق الناس بعضهم على بعض الذي يكون عدلاً لا فضلاً، لأنّ ذلك يكون لكون بعض الناس أحسن إلى البعض،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٧).
(٢) سبق تخريجه.

فاستحق المعاوضة، وكان إحسانه إليه بقدرة المحسِن دون المحسَن إليه، ولهذا لم يكن المتعاوضان ليخص أحدهما بالتفضل على الآخر لتكافئهما.

وهو قد بين في الحديث أن العباد لم يبلغوا ضرّه فيضروه، ولن يبلغوا نفعَهُ فينفعوه، فامتنع حينئذٍ أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق، بل هو الذي أحقَّ الحق على نفسه بكلماته، فهو المحسن بالإحسان، وإحقاقه، وكتابته على نفسه فهو في كتابة الرحمة على نفسه وإحقاقه نصر عباده المؤمنين ونحو ذلك محسنٌ إحساناً مع إحسان.

فليتدبر اللبيب هذه التفاصيل التي يتبين بها فصل الخطاب في هذه المواضع التي عظم فيها الاضطراب، فمن بين موجب على ربه بالمنع أن يكون محسناً متفضلاً، ومن بين مسوٍّ بين عدله وإحسانه، وما تنزه عنه من الظلم والعدوان، وجاعل الجميع نوعاً واحداً، وكل ذلك حَيْدٌ عن سنن الصراط المستقيم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وكما بين أنه محسن في الحسنات، متمٌّ إحسانه بإحصائها، والجزاء عليها بين أنه عادل في الجزاء على السيئات.

فقال:

(وَمَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسَهُ)[1].

كما تقدم بيان في مثل قوله تعالى:

﴿**وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم**﴾[2].

وعلى هذا الأصل استقرت الشريعة الموافقة لفطرة الله التي فطر الناس عليها كما في الحديث الصحيح الذي رواه «البخاري» عن «شداد بن أوس» عن النبي ﷺ أنه قال:

(سيِّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمّ أنت ربي لا إلَه إلا أنتَ، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِكَ ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرّ ما صنعتُ، وأبوءُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠١.

بنعمتِك عليّ، فاغفرْ لي، فإنّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت)[1].

ففي قوله: أبوءُ بنعمتك عليّ، اعترف بنعمته عليّ في الحسنات وغيرها.
وقوله: وأبوء بذنبي اعتراف منه بأنه مذنب ظالم لنفسه.

وبهذا يصير العبد شكوراً لربه، مستغفراً لذنبه، فيستوجب مزيد الخير، وغفران الشر من الشكور الغفور الذي يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل.

وهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام في إضافة الحسنات والسيئات التي هي الطاعات والمعاصي إلى ربهم وإلى نفوسهم.

فشرُّهم الذي إذا أساء أضاف ذلك إلى القدر، واعتذر بأن القدر سبق بذلك، وأنه لا خروج له عن القدر فركب الحجة على ربه في ظلمه لنفسه، وإن أحسن أضاف ذلك إلى نفسه ونسي نعمة الله عليه في تيسيره لليسرى، وهذا ليس مذهب طائفةٍ من بني آدمَ، ولكنه حال شرار الجاهلين الظالمين الذين لا حفظوا حدودَ الأمرِ والنهي، ولا شهدوا حقيقة القضاء والقدر.

كما قال فيهم الشيخ «أبو الفرج بن الجوزي»[2].
[أنت عند الطاعة قدريٌّ، وعند المعصية جبريٌّ، أيَّ مذهبٍ وافق هواك تمذهبت به].

وخير الأقسام هو القسم المشروع: وهو الحق الذي جاءت به الشريعة أنه إذا أحسنٍ شكر نعمة الله عليه، وحمده. إذ أنعم عليه بأن جعله محسناً ولم يجعله مسيئاً، فإنه فقير محتاج في ذاته، وصفاته، وجميع حركاته، وسكناته إلى ربه ولا حول ولا قوة إلا به فلو لم يهده لم يهتدِ كما قال أهل الجنة:

﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[3].

---

(١) رواه البخاري (١١/٨٢) والبغوي في شرح السنة (١٣٠٨)، والنسائي (٨/٢٧٩)، والترمذي (٣٣٩٠)، ورواه بلفظ قريب أبو داود (٥٠٧٠) وابن ماجه (٣٨٧٢).
(٢) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي. كان علامة عصره، كثير التأليف له نحو ثلاث مئة مصنف في مختلف العلوم، ولد في بغداد عام (٥٠٨ هـ) وتوفي فيها عام (٥٩٧ هـ).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

وإذا أساء اعترف بذنبِهِ، واستغفر ربهِ، وتاب منه، وكان كأبيه آدم الذي قال:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾(١).

ولم يكن كإبليس الذي قال:

﴿بما أغويتني لأزينّن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾(٢).

ولم يحتج بالقدر على ترك مأمور، ولا فعل محظور، مع إيمانه بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق كل شيء وربِّه ومليكه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، ونحو ذلك وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله في قوله في هذا الحديث الصحيح:

(فمنْ وَجَدَ خيراً فليحمدِ اللّهَ، ومَنْ وجَدَ غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه)(٣).

ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب إلى النفس مع العلم بأن الله خالق أفعال العباد في أسرار ليس هذا موضعها ومع هذا فقوله تعالى:

﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً. ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(٤).

ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي كما يظنه كثير من الناس حتى يحرِّف بعضهم القرآن ويقرأ (فمن نفسك).

ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة، وحتى يضمر بعضهم القول على وجه الإنكار له، وهو قول الله الحق، فيجلّ قول الصدق الذي يحمد، ويرضى قولاً للكفار يكذب به، ويذم ويسخط بالإضمار الباطل الذي يدعيه من غير أن يكون في السياق ما يدل عليه.

ثم إن مِنْ جهل هؤلاء ظنهم أن في هذه الآية حجة للقدرية، واحتجاج بعض

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٠.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سورة النساء، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩.

القدرية بها، وذلك أنه لا خلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدر.

فمن قال: أن العبد هو الموجود لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله وأن الله لم يخلق أفعال العباد فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية.

ومن أثبت خلق الأفعال، وأثبت الجبر أو نفاه، أو أمسك عن نفيه وإثباته مطلقاً، وفصل المعنى أو لم يفصله فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية، فتبين أن إدخال هذه الآية في القدر غاية الجهالة، وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد به المسارّ والمضارّ دون الطاعات والمعاصي كما في قوله تعالى:

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾[1].

وهو الشر والخير في قوله:

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[2].

وكذلك قوله تعالى:

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آبائنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾[5].

وقوله تعالى:

﴿وإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة هود، الآية: ١٠.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٩٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

فهـذه حال فـرعون وولائـه مع مـوسى ومن معـه، كحـال الكفـار والمنـافقين والظالمين مع محمد ﷺ وأصحابه [إذا أصابهم نعمة وخير قالوا: لنا هذه، أو قالوا: هـذه من عنـد الله، وإن أصـابهم عـذاب تـطيـروا بـالنبي والمؤمنين وقـالـوا: هـذه بذنوبهم].

وإنما هو بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين، وهو سبحانـه ذكر هـذا في بيان حال الناكلين عن الجهاد والذين يلومـون المؤمنين على الجهاد، فـإذا أصابهم نصـر ونحوه قالوا هذا من عند الله، وإن أصابتهم محنـة قالـوا: هذه من عنـد هذا الـذي جاءنا بالأمر والنهي والجهاد كما قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾(1).

إلى قوله تعالى:

﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾(2).

إلى قوله تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيـديكم وأقيموا الصـلاة وآتوا الـزكاة فلمـا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشيـة، وقالـوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾(3).

إلى قوله تعالى:

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾(4).

وإن تصبهم حسنـة هؤلاء المذمـومين يقولـون: هذه من عنـد الله وإن تصبهم سيئة يقولون: هذه من عندك، أي بسبب أمرك ونهيك قال الله تعالى:

﴿فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾(5).

أي فبذنبك كما قال تعالى:

---

(1) سورة النساء، الآية: ٧١.
(2) سورة النساء، الآية: ٧٢.
(3) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(4) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(5) سورة النساء، الآية: ٧٩.

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[1].

وفي قوله تعالى:

﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم﴾[2].

وأما القسم الثالث في هذا الباب:

فهو قوم لبسوا الحق بالباطل، وهم بين أهل الإيمان أهل الخير، وبين شرار أنفسهم، ويضلونها ويوجبون لها فعل الطاعة وفعل المعصية بغير إعانة منه وتوفيق للطاعة وخذلان منه في المعصية.

وقوم لا يثبتون لأنفسهم فعلاً ولا قدرة ولا أمراً، ثم من هؤلاء من يبخل عن الأمر والنهي، فيكون أكفر الخلق، وهم في احتجاجهم بالقدر متناقضون.

إذ لا بد من فعل يحبونه وفعل يبغضونه، ولا بدّ لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين، فإذا جعلوا الحسنات والسيئات سواء سيئة، لم يمكنهم أن يذموا أحداً، ولا يدفعوا ظالماً، ولا يقابلوا مسيئاً، وأن يبيحوا للناس من أنفسهم كل ما يشتهيه مشتهٍ ونحو ذلك من الأمور التي لا يعيش عليها بنو آدم، إذ هم مضطرون إلى شرع فيه أمر ونهي أعظم من اضطرارهم إلى الأكل واللباس.

وهذا باب واسع، لشرحه موضع غير هذا، وإنَّما نبهنا على ما في الحديث من الكلمات الجامعة، والقواعد النافعة بنكت مختصرة، تنبه الفاضل على ما في الحقائق من الجوامع والفوارق التي تفصل بين الحق والباطل في هذه المضايق، بحسب ما احتملته أوراق السائل

والله ينفعنا، وسائر إخواننا المؤمنين بما علمناه، ويعلمنا ما ينفعنا، ويزيدنا علماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، وأستغفر الله العظيم لي ولجميع إخواننا المؤمنين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٦.

الفهارس

١ ـ فهرس الآيات

١٠ ـ حرف الكاف:

١١ ـ حرف اللام:

الرقم	الآية	السورة	الصفحة

١٢ ـ حرف الميم:

١٣ ـ حرف الهاء:

١٤ ـ حرف الواو:

١٥ ـ حرف الياء:

٢ ـ فهرس الأحاديث

٣ ـ فهرس الأعلام

٤ ـ الفهرس العام